رجل العباءة

هشام شعبان

الكتاب : رجل العباءة (مجموعة قصصية)
المؤلف : هشام شعبان
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤
رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٤٣٨٣٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 162- 8

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



رجل العباءة

وقصص قصيرة أخرى

هشام شعبان

اهــداء

إلى مي الشامي

من أعادتني للحياة بعد أعوامٍ في ظلمات الوحدة المنفردة..

من منحتني قُبلة الثقة مرةً أخرى..

من شجَّعتني كثيرًا..

من امتدحتني وقتما أصبتُ ، وقوَّمتني عندما أخطأتُ..

من لامستُ معها تلاقيًا ممتعًا في الأفكار..

إليكِ يا حبيبتي..

أهدي هذا الكتاب،،

هشام شعبان

مقدمة

مشكلات المجتمع المصري كثيرة ومتعددة؛ هذا المجتمع الذي يتكون طبقًا للتنظيم الهيراركي من جماعات، هذه الجماعات أساسها الأفراد؛ كل فردٍ من هؤلاء - باختلاف مكانته وموقعه في المجتمع، وباختلاف ظروف البيئة التي نشأ فيها؛ سواء الحضر أو الريف، بيئة منفتحة أو تحيط بها القيود من كل جانب، بيئة مثقفة أم أن الأمية هي المسيطرة فيها - تموج بداخله صراعات واضطرابات داخلية؛ كلٌّ حسب ظروفه وأسبابه ومكونات شخصيته الإنسانية.. هذه الصراعات بين الإنسان ونفسه لا تخرج إلى السطح بشكل مباشر وواضح، بل هي أمور يسعى كل منا لإخفائها بداخله؛ إما بدافع السطوة والسيطرة والاستحواذ، أو تجميل الصورة لكسب مزيد من التأييد والتبجيل الزائف.

ومن هنا فـ"رجل العباءة" هي مجموعة من القصص القصيرة المتنوعة.. ما بين الإسقاط على سلبيات أصبحت تعيش معنا في مجتمعنا الراهن نتيجةً لبزوغ نجم بعض التيارات وخفوت نجم البعض الآخر.. وكذلك ما يعانيه المواطن في حياته اليومية نتيجة لبيروقراطية الحكم وإحساس الكثيرين بالعجز الفكري تارة والمادي تارة أخرى؛ هذا العجز الذي انعكس على جميع المعاملات الإنسانية في المنزل والعمل، وأيضًا العلاقات العاطفية التي لم تعد كما كانت عليه في السابق من تضحية وعطاء.. وأخيرًا الكبت الأسري والضغط الدماغي الناتج عن عادات وموروثات لا يقبلها عقل.

حكايات واقعية من قلب الشارع والمجتمع وأخرى من خيال المؤلف، امتزجت جميعها في هذا الكتاب الذي يعد التجربة الأولى لكاتبه، والذي سعى من خلاله لإبراز أفكاره عبر أسلوب سهل وبسيط يبتعد عن تعقيدات الهندسة التحليلية والمعادلات الجبرية، كي يناسب مستويات ثقافية متمايزة.

رجل العباءة

والده اتسم بالزعامة والحكمة، وكانت له هيبة كبيرة، يجّله الكبير قبل الصغير في قرية "ميت أبو علم".. اعتاد في حياته الطويلة التي امتدت إلى سبعة أعوام بعد المائة؛ أن يكون زعيمًا لأهل بلدته وعائلته التي كانت تمثل أكبر عائلات القرية...

في مساء يومٍ شديد السواد، كانت الرياح فيه عاتية، جاءه قومٌ من أطراف البلدة كانوا قد اختصموا بسبب قطعة أرض، ولأن العمدة "فايز" لم يكن بقدر حكمة حمدان شيخ البلد فكان الفلاحون دائمًا ما يلجأون له لحلِّ مشاكلهم..

في أحد نواحي البلدة كان هناك رجل مستور الحال يُدعى "شُكر" لم يكن بحال جيدة ماديًا، وكان ضائق الحال دائمًا، حتى إنه اعتاد في دخله اليومي على المعونات والصدقات التي كانت تأتيه من شيخ البلد وأعيان القرية، وكانت له زوجة صبية تصغره بنحو عشرين عامًا، فهي الزوجة الثانية بعد وفاة زوجته الأولى أثناء ولادتها، قبل ثلاثة أعوام؛ وهي الولادة التي تمخض عنها طفل فاقد للروح..

اعتادت "صفية" زوجة "شُكر" الخروج بأوانى الطهي خاصتها إلى الترعة الممتدة كشريط قطار بطول القرية.. كانت "عايقة" ترتدى فستانًا خامته من القطن الخالص وألوانه فاتحة تنتشر عليه الورود كحديقة أو بستان ينتظر من يقطف منه ما يشاء، خاصة وأن تقدم "شُكر" في العمر حال دون قدرته على العمل في هذا البستان؛ كما كان يفعل خلال أعوامه الماضية.. بفستانها هذا الذي يمتد فقط لأسفل ركبتيها بقليل ويظهر ذراعيها شديدي البياض،

وبـ"إيشارب" صغير من نفس خامة الفستان، تغطي به جزءًا من رأسها الذي امتدت منه خصلات شعرها كشلال في أعلى منحدر بدول المنبع في أفريقيا.. تجلس على حافة الترعة بعدما لملمت فستانها ليظهر ما أسفله وتشرع في غسيل الأواني وهي تردد أغنية (محلاها تدبيلة عنيك) لـ"حسيبة رشدي".. بجوارها تجلس جارتها وصديقتها "هنية" والتى تغمز لها بأن "الهوى وصل"...

كان "عبد الله" شاب يصغر "صفية" بسنتين، لكنه شديد الإعجاب بها وهي كذلك، وكثيرًا ما اختلى بها في منزله عندما كانت تخبر زوجها بأنها ذاهبة إلى السوق.. مرات عدة افترشت "صفية" جسدها كملاية على سرير "عبد الله"، الذي بدوره لم يدّخر جهدًا في إعادتها لزوجها وهي متوهجة كعروس ليلة زفافها؛ محمرة الخدين والشفاه؛ تعاني ألمًا لذيذًا في ظهرها ومهبلها الذي يشبه قلب زهرة ينفتح وينغلق على طريقة اللعبة التي كان الأطفال يلعبونها قديما (فتّحي يا زهرة.. غمضي يا زهرة)..

لم يكن أحد بالبلدة يعرف قصة "صفية" و"عبد الله" سوى صديقتها "هنية" والتى لم تكن قد تزوجت بعد..

وبعد فترة بعيدة بدأت الأحاديث تكثر حول زوجة "شُكر" و"عبد الله" ابن عرفان، حتى إن شيخ البلد أرسل في طلب "شُكر" من أجل هذه المسألة..

ذهب إليه "شُكر" في منزله.. كان شيخ البلد يجلس على كرسيه المعتاد في واجهة الدار -وهو كرسي قيل إنه ينتمي لزمن الفراعنة.. ضخم وعليه رسومات فرعونية مميزة، يشعر من يجلس عليه كأنه سيد هذا الكون وكل هؤلاء ما هم إلا عبيده-..

- صباح الخير يا شيخ البلد.

- إزيك يا "شُكر".

- الحمد لله يا حاج الأشية معدن..

"قالها وهو يرتجف وتتقطع الكلمات في فمه".

- مزنوق في فلوس؟.. عايز حاجة أنت ولا "صفية" مراتك؟

- لا يا حاج مستورة والحمد لله.. خيرك سابق..

"نفس الارتباك".

"بحدة مفاجئة":

- بص بقى.. الكلام كتر على مراتك وإنها تعرف الواد دا ابن عرفان..

"الكلمات تتقطع بغضب":

- قطع لسان اللي يقول كده يا شيخ البلد، أنا مراتي شريفة وست الستات.

"بنبرة رجل حكيم ورزين":

- اهدأ يا "شُكر" دا كلام بيتقال.. وأنا عايزك تاخد بالك من أهل بيتك.. كلام الناس كتير زي ما أنت عارف، بس على رأي المثل "مفيش دخان من غير نار".

خرج "شكر" من دار شيخ البلد وهو مستشاط غيظًا ورأسه تضرب أخماسًا في أسداس. وعقب وصوله لمنزله كانت "صفية" في انتظاره وعلى وجهها قلق ممزوج بريبة وخوف، أسرعت نحوه لدى دخوله من الباب:

- فيه إيه يا خويا شيخ البلد قالك إيه..؟

- قاللي إيه ؟!.. يا فاجرة.. قاللى إنك إنتى والواد ابن عرفان مقرطسيني.. إنكم بـ......

قبل أن يكمل حديثه، وبسذاجة استوردتها "صفية" من بنها قالت:

- قطع لسان اللي يقول عليَّ نص كلمة.. وأنت يا "شُكر" صدَّقت؟!!.. دانا مراتك حبيبتك عايشة معاك بقالي تلات سنين ومستحملة.. يا أخى حرام عليك.. حالتنا تصعب على الكافر وبنمد إيدينا للي يسوى واللي ما يسواش وراضية.. ربنا مارزقناش بالعيال لحد دلوقتي وقلت عادي مقدّر ومكتوب.. دانت بتشوفني مش بفوت فرض.. أنا عارفة مين اللي عملت كده.. أكيد مرات شيخ البلد،ماانت عارف إنه كان عايزني زمان ولولا أهلها كان زمانى مراته دلوقت.. صح ولا غلط يا "شُكر"؟؟

هو.. يخيم عليه الصمت ولا يرفع رأسه من الأرض وترتسم على وجهه علامات الضيق والهموم..

- عموما يا ابن الناس.. متشكرين..

"وفجأة":

- طلقني يا "شُكر"..

في دهشة جعلته يرفع رأسه وينظر لها:

- أطلقك.. إيه الكلام اللي بتقوليه دا يا "صفية"؟

- هو دا الكلام اللي عندي يا أبو ابني اللي في بطني..

بسرعة ولهفة ومفاجأة:

- ابني؟؟ تقصدي إيه يا "صفية"؟

- أنا كنت عاملالك مفاجأة يا "شُكر".. رحت المستوصف النهاردة والحكيمة قالتلي إنى حامل في شهرين...

"تقولها وتعطيه ظهرها وترتكن على مصطبة في وسط المنزل".

بفرحة عارمة أنسته المشكلة التي كانت ناشبة بينهما:

- معقولة، أنا مش مصدق نفسي، أخيرًا هابقى أب..

- لكن ابننا دا هيعيش وأبوه وأمه مطلقين يا "شُكر"..

تقطب وجهه وما زالت علامات السعادة الغامرة عليه:

- إيه اللي بتقوليه دا.. طب دانتى متعرفيش أنا قلت إيه لشيخ البلد.. قلتله مراتي أشرف ست في البلد.. مراتي ست الستات..

بدلع نسائي محفوظ:

- لأ يعني لأ.. إنت لازم تطلقني.

يقترب منها ويربت على كتفها ويضمها إليه:

- خلاص يا ست الكل أنا غلطان واستاهل.. العفو والسماح يا ستهم.. إنتى من هنا ورايح تقعدى معززة مكرمة وأنا أخدمك بأيدي دول.

في تلك الليلة العاصفة، وأثناء جلوس "حمدان" مع المختصمين بسبب قطعة الأرض.. جاءه "عوض" الغفير يلهث وعلى وجهه فرحة عارمة:

- يا شيخ البلد.. يا شيخ البلد.. البت سعدية بلَّغتني إن الحاجة قامت بالسلامة وجابتلك الولد؛ ولي العهد يا شيخ البلد.

نهض الحاج حمدان من على كرسيه بعدما استأذن من ضيوفه الذين بدورهم رحلوا فور حل مشكلتهم بعدما باركوا له على المولود الجديد.. أسرع حمدان نحو زوجته في الدور الأعلى، فدخل عليها غرفتها، حولها نساء كُثر من الخادمات وغيرهن.. هي مستلقية على سريرها النحاسي الذي تدلت من حوله "الناموسيه".. العرق يتصبب من جبينها، وبجوارها طفلها الذكر الذي طالما انتظرته هي وحمدان طويلاً.. يقترب منها بعدما خرجت النساء جميعًا..

- حمد الله على السلامة يا حاجة.

- الله يسلمك يا حاج، جبتلك الولد، ابنك أهو يا حاج، هتسميه إيه ؟

- هسميه "حسن" عشان يكون حسن في أخلاقه بين الناس.

ذاع الخبر في البلدة كلها، كان مفاجأة كبيرة فلم يتوقع أحد أن الحاج حمدان في هذه السن ما زال قادرًا على الإنجاب.. وأخيرًا وصل الخبر إلى "شُكر" و"صفية" واللذين رغم كل ما قدمه لهما حمدان من معونة وصدقة طوال السنوات الماضية إلا أنهما رفضا أن يذهبا له ليباركا له على المولود الجديد، رغم أن أهالى البلدة جميعهم كانوا حاضرين في "المائدة" التي أقامها حمدان في فناء منزله وذبح فيها عشرة عجول احتفاءً بولي العهد..

الأيام تمر سريعًا.. يموت "شُكر" قبل أن يرى ابنه.. فبعد معاناته لأشهر من مرض البلهاريسيا وافته المنية في ليلة ميلاد ابنه.. كان الحاج حمدان هو أول المُعزيين والمباركين، فذهب إلى "صفية" وأخبرها أنها هي و"سيد" - وهو الاسم الذي سمَّت به صفية ابنها - لن يعيشا بمفردهما في منزلها هذا، وأنه عليها أن تذهب معه إلى داره كي تعيش بجوار زوجته تراعيها، وحتى لا يتحدث أي شخص عنها ويثير حولها القيل والقال.

لم تتوقع صفية شيئًا أسوأ من هذا، فهي رغم ضيق حالها، نزيهة وكبرياؤها في العالي، ولم تكن لتطيق أوامر أو توجيهات من زوجة حمدان.. لكنها على مضض وافقت على كلامه، خاصةً وأن أعيان البلد أيَّدوا هذا الرأي...

بالفعل ذهبت صفية وهي تحتضن ابنها إلى دار حمدان شيخ البلد، وكما توقعت كانت مقابلة الحاجة "علية" زوجة حمدان لها كمن تقابل زوجة أبيها أو ضرتها.. ومن غير أن ترد عليها السلام أخبرتها أنها ستقيم في الغرفة المجاورة للدار وستكون مهمتها رعاية "حسن" ومساعدة الشغالين في شغل البيت..

في غرفتها المبنية من الطوب اللبن والتى لا تتجاوز مساحتها مترين في ثلاثة أمتار، جلست "صفية" على مصطبة وبجوارها "وابور الجاز"، تندب حظها في صمت، وتلعن الظروف التي ستمنح زوجة حمدان فرصة إذلالها أكثر.. وخلال تفكيرها المليء بالأحقاد والخيالات، أدركت أن لحالتها تلك مخرج وحيد.. "عبد الله"..

أرسلت في طلبه.. وبالفعل وافق على مقابلتها؛ وكانا قد انقطعا عن مقابلاتهما الحميمية طوال فترة حملها.. فأثناء تجولها في سوق الخميس لشراء طلبات البيت للست "علية" دار بينها وبين عبد الله حديث قصير مقتضب..

- بص يا "عبد الله" أنت لو مشفتلكش حل أنا مش عارفة هعمل إيه..

- حل إيه يا صفية؟.. أعمل إيه يعني؟

- تعترف بابنك.. هو "سيد" دا ابن مين.. انت هتصدَّق الكدبة ولا إيه ؟.. هو "شُكر" الله يرحمه كان في سنه دا يعرف يجيب برص حتى ؟!

- طيب وإنتى عايزانى أعمل إيه دلوقتى.. عايزانى أقول إن الولد ابني عشان ما يطلعش علينا نهار لا أنا ولا أنتي ولا الواد؟..

- خلاص إحنا نسيب البلد دي وننزل مصر، وأهو هناك لا حد هيعرفنا ولا نعرف حد.

بدا أن عبد الله اقتنع بتلك الفكرة، خاصة وأن الحديث حول ما كان بينه وبين صفية بدأ يظهر على السطح مرة أخرى، كما أن الشيخ حمدان يديه طائلة وقادر على أذيته في أي وقت.. فاتفق مع صفية على أن يقابلها ساعة الفجرية عند شريط القطار... وبالفعل تقابلا هناك، ورحلا في قطار البضائع إلى القاهرة.. كان لعبد الله ابن عم يسكن حي الحسين، ذهبا إليه وهناك "استلقط" لهم غرفة بحمام وأخبره أنه سينزل للعمل معه في الكباريه الذي يعمل فيه.

كان العمل الذي سيخوض فيه "عبد الله" مع ابن عمه "نجم" هو تقديم المشروبات للزبائن وتجميع "النقطة" من تحت الراقصة.. على تلك الحال حتى بدأ "سيد " يترعرع" وأصرَّت والدته على إدخاله "الكُتَّاب" حتى يكون شيخًا عالمًا وسيد قومه.

في تلك الأثناء، وكما هو حال كثير من أبناء البلدة ظلوا أسابيع يتحدثون عن "صفية" وابنها وعن "عبد الله بن عرفان"، حتى إنهم اختلقوا الكثير من الحكايات وألَّفوا القصص التي تندروا بها خلال مجالسهم على المقاهي..

وفي هذا التوقيت كان "حسن" ابن شيخ البلد قد بدأ دروسه في "الكُتَّاب" حيث اتسم بذكاء شديد وقدرة فائقة على حفظ القرآن، وكثيرًا ما تحدث أعيان البلدة مع والده خلال مجلسه الأسبوعي من أجل أن يقدِّم له في الأزهر الشريف.

في ساعة مبكرة بأحد الأيام، أثناء جلوسها على الأرض وعلى ساقها استند ابنها "سيد" برأسه وهي تخرج ما به من "قمل"، جاءها "نجم" والدموع تزرف من عينيه..

"بلهفة وقلق": - فيه إيه يا "نجم" هو عبد الله فين..؟

- عبد الله تعيشي انتى يا أم سيد...

هي.. صراخ وولولة ونحيب.. تخرج مسرعة من غرفتها نحو الشارع، حيث استقبلتها أمام مدخل المنزل عربة الموتى، ممدد فيها "عبد الله" داخل نعشه قبل مثوله بمثواه الأخير.. زادت من صراخها ولطمها لوجهها، وتجمع حولها نساء الحي اللواتي حملنها إلى غرفتها وبدأنَّ مواساتها..

ظلَّ "نجم" يتردد عليها هي وابنها يوميًا يقضي لهما طلباتهما، إلى أن فاجأها في أحد الأيام بقوله:

- بصي يا "صفية" أنا راجل على قد حالي، وقعدتك كدة مش ولابد.. دا حتى الإيد البطالة نجسة..

- تقصد إيه يا أخويا ؟..

- أقصد إنك لازم تنزلي وتشتغلي عشان تعرفي ترّبي ابنك، أنا الحالة معايا ضنك.

"الهموم على وجهها":

- وماله يا أخويا اشتغل، بس إنت عندك شغلانة قدامك ؟

- بصي الشغل اليومين دول صعب.. مفيش غير الكباريه اللي كان شغال فيه "عبد الله".

"بدهشة":

- كباريه! عايزني أشتغل في كباريه يا نجم ؟!

- وماله الكباريه يا صفية؟.. إنتي ناسية اللي كنتي بتعمليه إنتي و"عبد الله" أيام ما كنتم في البلد وإنتى متجوزة "شُكر"، ولا إنتى فاكراني مش عارف اللي حصل والزفة اللي طلعتوا بيها من البلد.

وقعت كلمات "نجم" عليها كأنها رصاص أصاب قلبها في مقتل.. تلك الكلمات التي تطلبت لحظات بدت كأنها دهر بالنسبة لها حتى تستجمع قواها مرة أخرى وتجيبه:

- طيب يا أخويا اللي تشوفه..

في الكباريه.. بدأت "صفية" نفس العمل الذي كان يقوم به "عبدالله" مع اختلاف بسيط، أنها كانت يوميًا تخرج مع أحد الزبائن في سهرة حمراء، مجبرة هي عليها من أجل تربية ابنها وإدخاله الأزهر.. هكذا حتى دخل "سيد" الأزهر، لكنه لم يكن متفوقًا فيه مثل حسن الذي كان يسبقه بعام.

هكذا الحال لأشهر قليلة، إلى أن مات الحاج حمدان وشيَّعه الكثيرون.. ومن بعده ماتت صفية على فراش "مراد بيك" في جاردن سيتي، ولم يعلم أحد بوفاتها إلا "نجم" الذي دفنها بجوار "عبدالله" في مدافن أهل الخير، ثم أبلغ بعدها ابنها "سيد" والذي سيطرت عليه حالة من البكاء الهيستيري لفقدانه والدته التي رغم حياتها المرقعة كان جُلُّ همها هو "سيد" وكيف تربيه ليكون "سيد قومه".

لم تسر الأمور بعدها كما كانت صفية تأمل وتتمنى، فرفض "نجم" أن يصرف على "سيد" حتى يكمل دراسته في الأزهر، وطرده بعيدًا عن الحي، حتى إنه عمل لدى "مراد بيك"

وهو أحد البكوات في جاردن سيتي، ولم يكن يدري "سيد" من أين عرفه هذا الباشا وأرسل في طلبه كي يعمل لديه... لم يرهق نفسه في هذه التساؤلات، وعاش لدى "مراد بيك" الذي أظهر له عطفًا وحنانًا كأنه يكفر بهما عن ذنبه مع صفية، فأكمل هذا الصبي دراسته الأزهرية، وتخرج بعدما كان قد تخرج "حسن" قبله بعام وعاد إلى بلدته.

في بلدته سيطرت على "حسن" نزعة الزعامة وحب السلطة وأن يلتف الجميع حول كرسيه الفرعوني الذي ورثه عن والده.. كانت القرية فقيرة والجهل متفشي فيها مثل قرى أخرى كثيرة غيرها، وهو ما هيَّأ المناخ لـ"حسن" كي يبسط نزعته السلطوية ويفرض زعامته على الأهالي، ويصبح ملهمهم ومولاهم؛ مثلما تمنى طوال حياته القصيرة.. وبالفعل توافد الأهالي من القرية والقرى المجاورة إلى الشيخ حسن الذي ذاع صيته بأنه عالم أزهرى كبير يدعو الناس لمبادئ الإسلام الحق.. لم يكتفِ فقط بجلوسه في مجلسه الأسبوعي الذي واظب عليه منذ بدأ دعوته تلك في الزعامة والرياء، فبدأ ينزل إلى المقاهي ومجالس الفلاحين في مزارعهم وأراضيهم يدعوهم إلى ما أسماه "دعوة الإسلام الحق" فالتف حوله الكثيرون ورأوا فيه ملهمهم ومثواهم للخلاص من عذاب الرب الذي ينتظرهم بسبب خطاياهم، وكذلك حتى يتعلموا منه دينهم الذي حادوا عنه خلال السنوات الماضية.

كان منظر مجلس الشيخ "حسن" في فناء منزله والعشرات من البسطاء يتجمعون في انتظار خروجه عليهم بعباءته البيضاء وعمته القرمزية؛ منظرًا مُهيبًا، تشعر معه كأن الإله سينزل لهم من السماء في تلك الساعة.

أثناء تجمعهم قبيل الموعد المحدد للدرس الأسبوعي، كان "حسن" يقف خلف شباك المنزل من الداخل، ينظر إليهم وعلى وجهه ابتسامة عريضة.. يمسك بيمناه مسبحة طويلة من تسعٍ وتسعين عقدة.. لا يتحدث بشفتاه لكن بقلبه.. لم يكن هو بل شيطانه الذي غلب عليه وأنساه أن الرياء هو الشرك الأصغر.. يقول وهو في صمته المملوء بأسرار: (هلموا هلموا إلى المجلس. قريبًا ستركعون لي.. سأسيِّركم كما أشاء.. فأنا ربكم الأعلى).

دقائق ويخرج لهم ليعطي درسه، حتى ينتهي منه ثم يعاود حياته التي لا يعرفها طلابه؛ حياته الخاصة التي تزوج فيها أربع فتيات من بنات القرية، كما اعتبر الباقيات من الخدم "ملك يمينه"...!

أما "سيد" الذي تربى في كنف "مراد بيك" فلم يكن قلبه كالحجر حتى لا يتأثر بمعيشة أهل الحضر وتمدنهم الذي تبع النهج الباريسي، فتبدل حاله تمامًا عقب تخرجه من الأزهر، واتجه إلى العمل المدني بعد وساطة "مراد" له في وزارة الحقانية، فعمل بها موظفًا، وتعرَّف خلال تلك الأيام على العديد من هوانم جاردن سيتي فعاود أفعال والديه المشينة وعاش دهرًا في الرذيلة يتنقل من فراش لآخر.. يعاشر الشقراء والسمراء؛ الأم وابنتها.. إلى أن أوقعته الأقدار في طريق شيخه السابق في الأزهر، وذلك أثناء عودته من عمله في أحد الأيام.. دعاه شيخه لأداء صلاة العصر والحديث قليلاً.

ذهب "سيد" فصلى العصر وحضر مجلس الشيخ "حسن" - لم يكن يعرفه وقتها وكانت أخبار البلدة وما فيها بمعزل عنه منذ وفاة أمه - تأثر كثيرًا بحديث "حسن"، وهو الحديث الشهري الذي ينزل إلى القاهرة خصيصًا لإلقائه.. بعد الدرس جلسوا ثلاثتهم، وتحدث "سيد" بشيء من الندم عن حياته المليئة بالمجون والخلاعة.. فقابله "حسن" بكاريزمته المسيطرة ونزعته في الاستحواذ وفتح معه حديثًا عن منهجه وكيف أن له أتباعًا كثيرين، وأنه يريد أن يكون هو ملهمهم من بعده.

بنشاط ملحوظ استرجع "سيد" دروسه القديمة وزاد من العلوم الحديثة في الفقه والسنة، لكنه لم يهجر ماضيه النسائي كما تصور "حسن" وغيره؛ بل كان يذهب من حين لآخر إلى تلك البرنسيس وهذه الهانم.

سنوات عديدة مرَّت.. أصيب بعدها "حسن" بمرض خطير، حزن عليه كل أتباعه.. فانقطع عن درسه الأسبوعي ودعا "سيد" لمقابلته وهو على فراش المرض:

- يا شيخ سيد.. اللي أنا بدأته لا يمكن يقف.. أنت هتكمل المسيرة من بعدي.

- بعد الشر عنك يا شيخنا.. أنت البركة وأنت المعلم.

- أنا بموت خلاص.. لكن اللي هيخليني عايش هو سيرتي واسمي اللي بنيتهم طول السنين اللي فاتت دي.

- ما تخافش يا سيدنا درسك ومنهجك هيستمروا إلى أن تقوم الساعة.. فمنهجك منهج حياة.. وإن شاء المولى يجعل كل هذا في ميزان حسناتك.

لم تمر ثلاثة أيام حتى أُذيع نبأ وفاة الشيخ حسن.. خرج المئات يشيعونه؛ الرجال والنساء والأطفال؛ يشيعون الشيخ حسن العالم الأزهرى الذي علَّمهم، الشيخ حسن الذي لا يعرفون وجهه الآخر ومساعيه الشخصية من الزعامة عليهم واقتيادهم إلى ما يريد.

أما "سيد" فجلس مجلس "حسن" وارتدى عباءته البيضاء وعمته القرمزية وراودته الأفكار ذاتها، بعدما وجد الخلق يقبِّلون يديه ويقدسونه.. إلا أن أحاديث بعض العامة البسطاء على المقاهي أثناء تجوله أتاح له فرصة سماع بعض القصص والحكايات عن "صفية" والدته و"عبدالله" والده - مع العلم أنه لا أحد كان يعرف أصله وفصله، وكل ما كانوا يعرفونه أن الشيخ العالم صديق الشيخ حسن - هذه الحكايات تسببت في ثورة من الحقد وبركان من الغضب لا أحد يقدر على صده أو مقاومته.. فاستغل "سيد" مكانته لدى الفلاحين من ناحية، وفقرهم وجهلهم من ناحية أخرى من أجل الانتقام لوالديه.. (حتى وإن كانا قد أخطآ حقًّا؛ فلا يجوز لأحد أن يتندر بسيرتهما)... هكذا قال لنفسه.

انتقام "سيد" كان له طابع خاص.. غير مرئي.. انتقام جديد اتبَّع فيه ما منَّ الله به عليه من علم، فحرَّف في تفسير آيات القرآن، ووضح متشددًا في كثير منها، اعتقادًا منه أن تعسير حياة هؤلاء الفلاحين سيكظم غيظه ويشفي الحقد الذي تملك من قلبه وسيرد له كرامة والديه..

وبدلاً من أن يثور هؤلاء التابعون للشيخ "حسن" على منهاج "سيد"؛ وافقوه الرأي... لا.. لقد امتثلوا له، فهم منذ زمن وقد أراحوا آلة الاختيار بين الصواب والخطأ التي منحهم الله إياها.. فأقنعوا أنفسهم بكل ما جاء به "سيد".

وبدأت القرية عهدًا جديدًا من التشدد والعسر لا اليسر.. حتى إن من جاء بعد ولاية "سيد" سار على منهجه وطريقته.

مجنون مَسّكوه نبوت

يعيش في حارة فقيرة بحي الحسين.. خريف سنة ١٩٥٠.. في أحد نواحي الحارة ارتكن مقرفصًا بثيابه المهلهلة ولحيته الطويلة العفناء وشعره المتدلي المليء بالقمل والحشرات.. أظافر يديه مليئة بالطين، وكفاه وقدماه تشققتا من شقاء الحياة..

تسير عند الظهيرة السيدة "كيداهم"، تلقي عليه السلام ولا يبالي.. يأتي المعلم "عطوة" فتوة الحارة ينهر صاحبنا بشدة: (يا مجنون يا ابن المجانين قوم امشي من هنا) ويضربه بنبوته إلى أن تكاد تنكسر عظام ضلوعه..

يعيش معاناة لم يعشها سوى هو وأقران له يقطنون تلك الحارة البائسة.. أيامهم بين هذا المسجد الذي يقضون فيه أمتع أوقاتهم، وبين أركان الحارة ونواحيها ونبابيت الفتوة وأعوانه في "الرايحة والجاية".

الأيام تسري.. الكل لا يرى في "تونسي" سوى الشخص المجنون الذي فقد عقله من كثرة الضربات التي يتلقاها من نبوت عطوة.. لا يختلف اليوم عن الأمس ولا عن غدٍ.. سنوات مرَّت وصاحبنا "تونسي" على هذا الحال.. الحارة كالجماد غير النابض بالحياة.. كل شيء كما هو، إلا شيءٌ واحد.. هؤلاء الشباب اليافعون، الذين تطلعوا للأفضل بعيدًا عن سيطرة "عطوة" على الحارة وحكمه بالسوط والكرباج والنبوت..

لم يتحمل هؤلاء الشباب رؤية أناس ضعفاء أمثال مدكور وعوني وعبد الله ورؤوف بين أرجل عطوة وأعوانه؛ يخدمونهم ولا يقابَلون إلا بالإساءة.. ذهبوا إلى تلك الخرابة التي تبعد عن الحارة كيلو مترات قليلة.. وهناك شربوا قدحًا من الينسون، وعرض عليهم جاسر فكرته بضرورة إنهاء هذا الظلم البيِّن.. وافقوه الرأي، وينتابهم شيءٌ من الخوف والقلق إذا فشلت مساعيهم.

في تلك الأثناء كان علوان يتجول بحماره ساعة الفجرية ذاهبًا الى السوق بالقرب من الخرابة.. وكما هو معروف عنه تباطأ واقترب وتنصت حتى علم بما يخطِّط هؤلاء الشباب.. هرول مسرعا نحو "تونسي" وباقي الحرافيش المجتمعين عند بيت "كيداهم" حيث تقيم غرزة صغيرة للمعسل والشاي، وأسعارها على قد اللي في أيديهم... دخل علوان عليهم وتعبيرات وجهه توحى بمصيبة.. وضع "تونسي" الجوزة جانبًا وخفت صوت الحضور.. بعد دقائق معدودة تنهد القوم رعبًا.. خوف وترقب وقلق ينتاب عبد الله ورؤوف وعوني ومدكور.. لكن "تونسي" طالبهم بالهدوء والنظر في الأمر.. فكَّروا مليًا حتى استقروا على مساندة الشباب في عملهم ضد الفتوة وأعوانه، لكن دون أن يعرفوا.

كانت ليلة شديدة السواد في خريف سنة ٥٠، تفرَّق الشباب كلٌ في "دربٍ" من دروب الحارة المؤدية للشارع الرئيسي الذي يعود منه عطوة كل ليلة قادمًا من تلك القهوة التي يلتقي فيها بـ"زمردة" عشيقته.. نبوته في يده وأعوانه كانوا غائبين؛ كلٌّ مع عشيقة له في بيت من البيوت.. هجم الشباب هجمة رجل واحد، قاومهم عطوة لساعات.. وصل الخبر لأعوانه.. ضجَّت الحارة بالصياح وصراخ النسوان.. حضر أعوان عطوة.. اشتدت المعركة.. وقتها انقض "تونسي" والحرافيش..رويدًا رويدًا لاحت ملامح النصر...

قُتل عطوة وتشرد أعوانه، ومنهم من قُتل أيضًا في تلك الليلة..

أجمع عددٌ لا بأس به على تعيين "تونسي" فتوة للحارة يحكم فيها بالعدل.. فهو كثيرًا ما عُرف عنه أخلاقه الكريمة وقربه من الله.

تولى "تونسي" الفتونة، لكن سرعان ما انقلب الطيب والخلوق الذي بداخله إلى شرير متسلط يسعى للتكويش على كل شيء ويقاسم أهل الحارة الذين بايعوه في رزقهم.. لم يُرضي هذا أصحابنا الشباب وندموا أشد الندم على اختيارهم العم "تونسي".. الذي جمع حوله من يثق بهم من أقربائه علوان ورؤوف ومدكور وعبد الله، وتجاهل الشباب الذين ساعدوه على ما هو عليه الآن.

أحد الأيام.. تستيقظ الحارة على صوت "مرعي" وهو ينادي أن الفتوة قرَّر زيادة قيمة "الإتاوة".. هبَّ القوم جميعًا من نومهم في ساحة الحارة القريبة من الخرابة القديمة.. تجمعوا وصمموا على رفض تجاوزات "تونسي".. جميعهم توحَّد.. ونسي جمال خلافه مع عبد اللاه، وصافح شكري رفيقه صابر بعد خلاف دام لفترة بينهما.. الكل أصبح يداً واحدة؛ إلا فريقًا واحدًا هم عوني وعبد الله ورؤوف؛ ممن انضموا لجبهة الفتوة وأصبحوا يعيشون حياة تيهًا وكأنهم ينتقمون من القدر الذي ظلمهم طوال السنوات الماضية.. لم يلتفتوا إلى تلك الاحتجاجات من قِبَل أهل الحارة.. وعقدوا اجتماعهم مع "تونسي" في قهوة "زمردة" حيث استقروا على تكرار فعلة المعلم "أبو شنب" فتوة الحارة قبل عشرين سنة والذي قضى على من حاولوا الخروج عليه بقتلهم.

وهكذا سرت في الحارة في الأيام التي تلت تلك الأزمة حالة من القتل وإشاعة الفوضى.. فيومًا تسمع المنادي يعلن خبر مقتل "عبد اللاه" في الخرابة.. ويومًا آخر مقتل "صالح" و"جمال" خلف البلدة... وهكذا، إلى أن مات كل من وقفوا لـ"تونسي وحاولوا إعادته للطريق الحق.. هو من قتلهم بيده بعدما شاركوه إزالة ظلم "عطوة" ونصَّبوه فتوةً لهم.

لم يفقد الشباب الذين تجاهلهم "تونسي" عزيمتهم في الانتقام منه وإزاحته عن كرسي الفتونة بالحارة.. أيام مرَّت.. ومثلما حدث مع "عطوة"؛ وقع "تونسي" صريعًا وسط الحارة تسيل منه الدماء.. هذا جزاء نتائجه وأفعاله.. وكذلك أعوانه الذين عادوا للقرفصة في أركان الحرة مكبلين بأغلال وعليهم من الهمِّ والندم ما يكفي لقتلهم.

الحارة بعدها لم تقع في الجحر.. وعاشت عهدًا من الازدهار والرغد.

الشيخ الزاني

يعيش في قرية بضواحي محافظة غلب على طابعها الفقر المدقع والجهل المتنامي والأمية التي تمثِّل امتدادًا ثالثًا لفرعي النيل "دمياط ورشد".. البيوت بالطوب اللبن، والشمس أحرُّ من الجمر في نهار شهر يوليو.. الأشجار نادرة في تلك البيئة الصحراوية، والمياه لا مصدر لها سوى الآبار الجوفية وبحيرة تمتد لعشرات قليلة من الأمتار.. التعليم مقتصر على كُتَّاب الشيخ عوني الذي تلقى دراسته في الأزهر قبل أعوام قليلة وعاد ليعلِّم أبناء بلدته البائسة.

"الشيخ عوني".. هكذا كان لقبه منذ عاد إلى بلدته، يبدأ يومه في العاشرة صباحًا بجوار منزله الذي يقطنه وحيدًا بعد وفاة الوالد والوالدة -وعزوفه عن الزواج بحجة أن نصيبه لم يأتِ بعد- حيث مكان صغير يكفي لعشرة أفراد، محاط بسور من الطين وسعف النخيل، وفي مقدمته كرسي يشبه التل المنخفض عليه قطعة من القماش، يجلس عليها وأمامه أطفال القرية الذين يأتون يوميًا ليحفظهم القرآن ويعلمهم الفقه.

ينتهي من درسه هذا في الكُتَّاب ليتجه إلى الزاوية "المسجد الصغير" من أجل أن يؤمَّ الأهالي في صلاة الظهر، دقائق معدودة عقب الصلاة؛ يبدو فيها كمن يسبِّح المولى ويستغفره.. ثم يخرج عائدًا إلى المنزل بعدما كان قد صادف في الطريق "عمّ عبد المنعم"، والد "نسمة"، والذي دعاه إلى منزله لتناول الشاي وقراءة ما تيسر من القرآن حتى تحل البركة على المنزل وأصحابه.

بعدما فرغ من مداولات عبد المنعم وزوجته فكرية وأبنائهما، واصل طريق العودة إلى منزله القاطن بالجزء الشرقي من البلدة.. على مصطبة نسج فوقها فراش من ملابس قديمة تم تجميعها سويًا؛ يلقي ظهره حتى يغوص في نوم عميق، يستفيق منه على صوت "حمزة" مؤذن الزاوية.. يهم بالنهوض من أجل اللحاق بالصلاة، لكنه يفاجأ بأن ذلك لن يجوز.. فقد شهد أثناء نومه حُلمًا جمع بينه وبين "فاطمة" بنت عم عبد العزيز الذي يسكن بجواره، والتي كان قد اختلس النظر إليها أثناء درس الكُتَّاب اليومي وهي تمر من أمامه ذاهبة إلى البئر لملأ بلاص المياه.

"فاطمة" في الحلم؛ لم تكن كما يراها الشيخ عوني في الحقيقة، فقد كانت عارية، لديها ثدي مشدود، وقوامها ممشوق، وخصلات شعرها السوداء تصل إلى حافة مؤخرتها التي أخذت شكل كشافي سيارة بمنطقة شديدة السواد في ظلام ليلٍ دامس.

اكتشف صاحبنا فعلته بعدما استفاق من سباته هذا.. سريعًا إلى دورة المياه يغتسل من حلمه النجس، قبل أن يطرق عليه أحدهم باب المنزل.. يخرج إليه وهو يحاول أن يهندم جلابيته البيضاء، وإذا بـ"محمد" رفيق صباه -والذي ترك الكُتَّاب قديمًا واتجه لتجارة الخردوات- يستعجل شيخنا لصلاة العصر.

مرَّت الخطوات سريعًا إلى المسجد.. يسير بجوار محمد، لكنه لا يسمع ما يقوله له، فهو ما زال داخل حلمه الذي استفاق منه قبل قليل.. تراوده الأفكار والخيالات، في أن يصبح هذا الحلم حقيقة.. في خيالاته تلك؛ إلى أن وصلا المسجد وأنهيا الصلاة.

عقب صلاة العصر؛ عاد إلى كرسيه بجوار المنزل يستقبل طلابه.. لحظات قليلة وطالبهم بالعودة إلى منازلهم.. فهو مريض وغير قادر على إعطائهم الدرس اليوم..

يدخل إلى منزله.. لا يخرج منه إلا على صراخ ونحيب وولولة الجيران.. يخرج منزعجًا، يقابله الحاج عبد المنعم الذي يبلِّغه بنبأ وقع عليه كالصاعقة:

- فاطمة بنت عبد العزيز تعيش انت يا مولانا.

انكمش وجهه؛ كأن عمره أصبح في الثمانين، وتقطبت جبهته وكاد يسقط أرضًا، لولا أن تدارك نفسه بمعاونة رفيق الصبا.

يأتيه مسرعًا الحاج عبد العزيز وعدد من كبار عائلة فاطمة:

- فاطمة ماتت يا شيخ عوني، ومفيش حد بتاع ربنا وعالم غيرك عشان يغسلها.

صمتٌ رهيبٌ من جانبه، وكأن الكلمات أصبحت أشواكًا تقطِّع حنجرته وتأبى الخروج. بمرارة وبعد لحظات ليست بالقليلة أجابهم؛ بعد أن أصابهم ذهول صمته؛ وقال:

- تحت أمرك يا عم عبد العزيز.. دا واجب عليا.. الله يرحمها ويصبرك انت وأمها وأخواتها.

في منزل عبد العزيز الذي يدخله لأول مرة.. نساء كُثر بملابسهن السوداء ووجوههن الواجمة.. في غرفةٍ بابها خشبي متهالك في أقصى اليمين؛ هناك ترقد فاطمة.. يدخل إليها بعدما جيء له بالماء والصابون..

خرج الجميع، وها هو بمفرده مع فاطمة.. حقيقة هذه المرة لا حلم.. لكنها هي من في الحلم.. هي من تعيش حالة سُبات أبدية.. مثلما رآها من قبل في يومه الذي يأبى أن ينتهي هذا.. شعرٌ مفرودٌ ينزل على كتفيها وهي مستلقية على ظهرها.. الوجه عليه ابتسامه هادئة تزيد من جمال خديها الورديين وأنفها الصغير.. شفاه إحمرارهما زائد.. الثديان متدليان بحلماتهما البنية الرائعة، وامتداد للأسفل كان ساقاها ملفوفتين على ببعضهما كأنهما يأبيان أن يرى أحد ما بينهما.

شيخنا عوني تيبّس في مكانه ينظر بانبهار ولسانه يلهث أمامه، ناسيًا أن آية الجمال التي يراها أمامه في لوحة الصمت تلك، ليست إلا جثة هامدة نُزعت منها الروح.. لم يبالي بكل هذا، وغلب عليه شيطانه واقترب منها في محاولة لإعادة انتاج حلمه النجس.. وها هو يخلِّص ساقيها من بعضهما بعدما ارتبطا كأنهما توأم ملتصق.. ينتهي من جولته الأولى بنجاح.. أكثر فأكثر نحو الشفاه الحمراء يقبِّلها كأسدٍ ظلَّ أيامًا يلهث وراء فريسته إلى أن فاز بها.. دقائق معدودة وكان قد أخرج مخزونًا من الكبت بداخله استمر أعوامًا.. العرق يتصبب من جبينه، لا يدري ماذا فعل وكيف.. بجواره المياه المطلوب تغسيل المرحومة بها.. اقتسمها مناصفة بينه وبينها، غسَّلها واغتسل،..وخرج إلى القوم الذين ينتظرون في فناء المنزل.

انتقلت فاطمة إلى قبرها ووراءها العشرات من أهالي البلدة تقدَّمهم الشيخ عوني الزاني.. كان ذلك عقب صلاة العشاء حيث وارى عليها التراب ونهض ينفض جلابيته.. وعاد إلى منزله بعدما تلقى دعوات من الأهالي له بالصحة والعافية والخير!.

كانت ليلة الجمعة.. انقضت كأنها دهر بالنسبة له.. كان عليه أن يحافظ على شكله وسط من يقدِّسونه من أبناء البلدة، وأن يتناسى فعلته المشينة قائلاً لنفسه دون اقتناع: (الله غفورٌ رحيم).

في مسجد القرية.. العشرات متواجدون ينتظرون إمامهم وعالمهم الجليل!.. يصل قبل بدء الخطبة بدقائق، يرتدي عمامة بيضاء وجلابية من نفس اللون.. يصعد إلى المنبر ويبدأ خطبته قائلاً:

- بسم الله.. والحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد.. إخواني في الله.. سنتحدث في خطبة الجمعة اليوم عن إحدى الكبائر التي حرمها الله.. ألا وهي "الزنا".. حيث يقول الله تعالى في كتابه (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا). صدق الله العظيم.. والزنا يا إخواني..........

الأيام مرَّت.. فاطمة انتقلت إلى رحاب ربها.. وشيخنا الزاني أخفى فعلته وظهر أمام الأهالي البسطاء بصورة الشيخ العالم التقي.. لم تتسنَ له فرصة جماع أنثى أخرى مثلما فعل مع جثة فاطمة.. لكنه اكتفى باختلاس النظرات إلى كل فتاة تمر من أمام مجلسه في الكُتَّاب.

البضاعة صيني

الحاج عبد الفتاح رجل "على باب الله"، متزوج من "فتحية" التي لا تجيد القراءة والكتابة - حتى أن فصول التقوية لمحو الأمية التي كان يعقدها مدرسات "الفصل الواحد" لم تكن تذهب إليها بحجة انشغالها بأعمال المنزل - يعيش معها في كوخ من الطين والطوب اللبن، سقفه من قش الأرز، ولديه ابن وحيد هو "سلطان" الذي يدرس في المرحلة الابتدائية بمدرسة القرية..

يعيش عبد الفتاح معتمدًا على عمله المتقطع بـ"اليومية" عند "عزيز باشا" الذي يمتلك أكثر من ٢٠٠ فدان ولديه فيلا في وسط حقول مليئة بأشجار التفاح والجوافة والعنب.. كانت أُجرته اليومية لا تتجاوز جنيهين، يعود بها يوميًا إلى زوجته وابنه، وهو مبلغ بطبيعة الحال لم يكن يكفي لحاجتهم، إلا أنه كان يعوِّض هذا النقص بقطف بعض حبات الفاكهة من جنينة الباشا يوميًا، حيث كان "عبد الفتاح" مقربًا من "عزيز" رغم أنه أحد الفلاحين الأُجراء، وكان عزيز يعتمد عليه في تنظيم موائد الرحمن التي يقيمها والأعطية التي كان يوزعها دائمًا على الفقراء والمساكين.. بجانب أنه اعتاد اصطحاب أسرته الصغيرة معه إلى فيلا عزيز خلال الحفلات التي يقيمها أسبوعيًا ويأتيه إليها عدد من نجوم وصفوة المجتمع وقتها، فيأكل صاحبنا وزوجته وابنه سلطان بعد انتهاء الحفل أنواعًا عديدة من الطعام الذي تشتهيه الأنفس.

هكذا استمر الحال، في تلك القرية التي يسكنها عدد ليس بالكثير من السكان، غالبيتهم في مستوى معيشي أفضل بقليل من "عبد الفتاح".. وبعضهم في حال مذرية، ولكن رغم ذلك لم يكن أهالي تلك القرية قد عرفوا بعد طريق التمدن والتحضر، وكان اعتمادهم الأساسي في الدخل قائم على زراعة ما لديهم من قراريط أرض قليلة.

لم يكن "سلطان" بارعًا في دراسته، وكثيرًا ما تغيب عن الذهاب للمدرسة، وأخبر والده مرارًا وتكرارًا عن رغبته في عدم استكمال تعليمه، والاتجاه للتجارة، والتجارة وقتئذٍ لم تكن بالمهنة الشائعة في قريتهم، لكن رغم ذلك أصرَّ "عبد الفتاح" على تعليم ابنه، وكان كثيرًا ما يشتكي لعزيز باشا منه، والذي بدوره حاول إثناء الولد عن تفكيره، دون جدوى.

أعوام كثيرة مرَّت، مات بعدها عزيز باشا والحاج عبد الفتاح، الأول ترك لورثته أطيانًا على مدد البصر، والثاني لم يترك شيئًا لابنه وزوجته سوى الفقر والحاجة، هذا الوضع الذي ولَّد عند "سلطان" حالة من الحقد والنقمة على عائلة عزيز باشا وكل من لديهم الأطيان في البلدة.

في أعقاب وفاة والده؛ أخبر أمه بأنه لن يستكمل تعليمه، وسيكتفي بما أنجزه خلال الأعوام الماضية وتدرجه في المدارس حتى أنهى المرحلة الإعدادية، وكشف لها عن أهدافه ورغباته في أن يصبح تاجرًا ماهرًا يجني الأموال الكثيرة..

رغم حزنها الشديد ومحاولاتها البائسة إثناءه عما يريد وأن يقبل بالوظيفة الحكومية التي جاءته، إلا أنه رفض، فرضخت "فتحية" لرغبة ابنها الوحيد وسلَّمت أمرها لربها.

كان لعزيز باشا نجلان؛ أحدهما "أدهم" وهو في عمر سلطان، والآخر "عيسى" وهو أصغر من أخيه بعام، كان خلقهما حسن، ويبران الفقراء من أبناء القرية، وواصلا ما كان أبوهما يقوم به في حياته من إقامة موائد الرحمن وتشغيل أبناء وشباب القرية عنده في الأراضي ومعاملتهم معاملة حسنة لا جفاء فيها.. وفي علاقتهما مع سلطان لم يبد منهما أي تكبر أو تعالي عليه، بل ظهر منهما العكس، خاصة وأنهما يكنان لوالده "عبد الفتاح" كل ودٍّ وحُبٍّ لقربه من والدهما، وأنه كثيرًا ما حملهما على يديه وهما صغيران، وتدخل لمنع أبوهما من ضربهما وعقابهما على أفعال خاطئة كانا يقومان بها. إلا أن سلطان لم يبادلهما هذا الحب والود، وكان يكن لهم كل كره وحقد وغيرة.

مع حالة الانفتاح الاقتصادي التي بدأت تشهدها البلاد - في ظل عهدٍ جديد - وجد "سلطان" ضالته في تحقيق هدفه بأن يكون تاجرًا كبيرًا لديه أموال كثيرة، إلا أن فشله في التعليم لم يكن فشلاً عابرًا في جانب واحد من جوانب حياته بل فشله امتد حتى للمهنة التي رغب فيها،، فسافر خارج البلدة بعدما ودَّع أمه التي انهمرت في البكاء، وخرج متوجهًا إلى تلك المنطقة الحرة والتى بدأت فيها تجارة الأقمشة والملابس.. هناك تعرف على أحد التجار يدعى "حنفي" اشتهر بالنفاق والكذب والسمسرة، بمجرد لقائه بسلطان وجد فيه الذراع الأيمن الذي سيساعده وسيتوافق فكره معه.

أخذ "حنفي" "سلطان" إلى القهوة، تبادلا حديثًا سريعًا وشربا الشاي، وبعدها أخبره المعلم أنه سيعمل معه:

- بص يا سلطان يابني، أنا من أول ما شفتك في المنطقة وقلت إن أنت ذكي وهتنفعني، وبيني وبينك العيال اللي شغالين معايا صعايدة ودماغهم مقفلة.. الواد من دول أديله حتتين القماش يرجع لى بيهم آخر اليوم، وقال إيه عايز مهية شيء وشويات.

- أنا تحت أمرك يا معلم ومن إيدك دي لأيدك دي، وهتلاقيني لهلوبة وعند حسن ظنك.

- يللا ع البركة.

أنهيا جلستهما على القهوة، ودفع "حنفي" الحساب بعدما أعطى القهوجي بقشيش، ودلف هو و"سلطان" ثلاثة شوارع جانبية إلى أن وصلا المخزن.. مكان من طابق واحد مساحته تتخطى العشرات القليلة من الأمتار، امتلأ عن آخره بملابس رجالي وحريمي وأطفال وأقمشة سادة بمختلف الألوان والمقاسات.. وهناك أخبره "حنفي" أنه سيأخذ عشرين قطعة ملابس وسيعود بها إلى بلدته من أجل بيعها لأهالي القرية؛ وذلك بعدما جعله يوقِّع على "كمبيالة" بثمنها..

الملابس كانت غريبة وجديدة على مرأى سلطان، فهو لم يعتد رؤية أهالى قريته في مثل هذا الزي، حتى أن أدهم وعيسى أبناء عزيز باشا؛ وبرغم مستواهما الاجتماعي والمادي؛ إلا أن زيهما كان يختلف عن تلك الملابس التي وقعت عينه عليها في مخزن "حنفي".. دقائق وأدرك بعدها أن هذه البضائع يصنعها بعض الخواجات الذي يعملون مع حنفي، وهي بضائع رديئة ورخيصة، إلا أنهم سيبيعونها بأسعار مرتفعة لتحقيق الربح السريع.

تلألأت عينا "سلطان" وسرح بمخيلته في الأموال التي تنتظره، وأخذ العشرين قطعة ووضعها في حقيبة من القماش لها "ذراعان من القماش أيضًا" وحملها على كتفه عائدًا إلى بلدته..

بعدما استراح قليلاً في الكوخ عند والدته، وعقب حديث قصير؛ حاولت فتحية الاستفسار منه على حاله، نهض بحقيبته ولفَّ شوارع البلدة، ينادي ببضاعته التي لم يرَ لها مثيل: (قرَّب قرَّب هدوم بلاد برة.. هدوم البشوات.. قرَّب يا فقير اشتري ليك ولولادك).. أقبل عليه الأهالى نساءً ورجالاً وأطفالاً، اشتروا كل ما معه وكانوا فرحين جدًا خاصة وأن العيد مقبل عليهم، لم يكتفوا بذلك بل طالبوه بمزيد من تلك الملابس الجديدة الناصعة.!

عاد صاحبنا إلى المعلم حنفي وأخبره بما حدث، وأعطاه الفلوس بعدما أخذ نصيبه، ثم رجع إلى القرية وهو محمل ببضائع أخرى بكميات أكبر وأكبر، باعها جميعًا..

وتزهزهت الحالة المادية، فبنى منزلاً بالطوب الأحمر والأسمنت بدلاً من الكوخ الصغير الذي عاش فيه طوال سنواته الغابرة، وافتتح محلاً للملابس بجوار منزله في القرية..

استمر الحال لفترات متعاقبة.. وسرعان ما تبدّل...

(الهدوم اللي اشتريناها من سلطان بتتقطع وبتدوب وباظت)... هكذا تحدَّث أهل القرية، بعدما أثبتت التجربة أن الملابس التي اشتروها من "سلطان" مضروبة، وأنه برغم ثمنها الباهظ إلا أن خامتها رديئة.. فبعد تكرارهم الوقوع في نفس الجحر وشرائهم لتلك الملابس مرة واثنتين في فترات غير متباعدة، تبيَّن لهم أن "سلطان" ضحك عليهم وباع لهم بضاعة مغشوشة... هبّوا ناهضين إلى محله الذي ارتكن في أول القرية بجوار منزله الجديد، أشعلوا النيران به... هرب "سلطان" إلى معلمه "حنفي" في المنطقة الحرة..

وهناك...

- الحقنى يا معلم.. الناس عرفوا إن الهدوم اللي بنبيعهالهم مش أصلي وحرقولي المحل.

- لا يا حبيبي، الكلام دا تروح تقوله لأمك، انت عليك كمبيالات توديك السجن عدل.

وبالفعل... أوفى حنفي بما وعد به وزَّج بـ"سلطان" إلى السجن.

سنوات مرَّت خلف القضبان، خرج بعدها، تلقاه على البوابة فتحية وأدهم وعيسى، اصطحبوه معهم إلى البلدة، بعدما طمأنوه أن الأهالي لن يتعرضوا له...

عاش وتزوج وأنجب أبناءً كثيرين.. في ريعان شبابهم تطلعوا لما كان والدهم قد تطلع له في زمنٍ مضى.. لم يستفيدوا من خطأ والدهم.. ومضوا في طريق أشبه بطريقه، إلى أن انتهى بهم المطاف في نفس السجن الذي عانى فيه سلطان من قبل جزاء سوءاته.. لم يكن الأمر غريبًا على أبناء القرية.. أدركوا أن نسل "عبدالفتاح" لن يعيش كغيره من الأنسال، وأن قدره خلف القضبان، لأن القدر من جزاء العمل.. كما تعلموا أن البضاعة الصيني لا يمكن شراؤها مرتين، فهي كالجحر لا يقع فيه المؤمن مرتين.

عادت الحياة لطبيعتها في القرية، وتندَّر الشعراء بقصص سلطان ومن بعده أبنائه.. قصص سلطان وأبنائه تلك لم تكن سوى سحابة عابرة في عمر تلك القرية الذي تجاوز آلاف السنين.

مُحجبة

داخل محل "الملكة" لملابس المحجبات في أحد الشوارع المتفرعة من شارع الهرم.. تقف "إسراء" مع صديقتها التي انشغل ذهنها بموديلات الحجاب الجديدة.. لم تكن هذه الفتاة الشاردة ترغب في الشراء، هي رغبة فقط بداخلها للتواجد في الشارع بعيدًا عن مشكلات المنزل التي لا تنتهي.. ورغم عدم طاقتها بصديقتها "ميرفت" هذه، إلا أنها اتخذت في منطق حياتها المقيد مبدأ (إيه اللي رماك على المر...).

لحظات متناهية الصغر مثل نملة في اليوم الأول لمولدها، هي التي انطلقت فيها "إسراء" بعيدًا عن قيود العادات والتقاليد.. لحظات قليلة في عمرها الذي تعدَّى العشرين بعام واحد، ذاقت فيها طعم الحرية المطلقة.. هذه الأوقات التي اختلستها بعيدًا عن نظر والدها من أسفل نظارته الضخمة، وفي غفلة من أمها التي انشغلت بعمل التريكو في صالة شقتهم المواجهة لمسجد "خاتم المرسلين" في العمرانية.

الخروج مع أمها وأبيها ثلاث مرات في العام: قبيل عيد الفطر، وعيد الأضحى، وقبيل المدرسة؛ ومن بعدها الجامعة في وقت لاحق عقب تقدمها في العمر من السن الطفولي إلى الشاب.. هذا الشاب المفعم بالحيوية والناقم على بيئته التي تم تجريفها بكل آلات التجريف القديمة منها والحديثة..

كالمعتاد، طقمٌ للخروج كانت "الطرحة" فيه الجزء الأساسي الذي ينير الطريق لباقي الأجزاء.. العمود الذي لن يقوَ المنزل على النهوض بدونه؛ هذه الطرحة الكلاسيكية الباهتة في أحيان كثيرة، وجيب من القماش المقوى؛ وأحيانًا الجينز، إلى جانب "بودي" و"بلوز" مقاسهما يتعدى المقاس المناسب لتلك الفتاة.. لم تكن هي من تختار، بل الست الوالدة، انطلاقًا من مبدأ (أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة).

صمتٌ يستحوذ على قلبها وعقلها.. روحها الطبيعية المرحة فقط تملك خيارًا واحدًا: "الامتثال" لأمرهما، فهي تدرك تمام الإدراك أن والدها الذي قضى جُلَّ عمره في أرياف الإقليم المصري لن تفيد معه استمالاتها العاطفية أو المنطقية، حتى أن أمها رويدًا رويدًا كانت قد تحولت إلى "أمينة" الزوجة الخادمة المطيعة التي لا تقوى على الرد.

ولأن النفس أمَّارة؛ ليس فقط بالسوء؛ ولكن بالغيرة والتطلع.. فكان من الصعب أن تكبح "إسراء" رغبة نفسها المتطلعة إلى الأخريات، في ظل مجتمع شهد في الآونة الآخيرة نماذج أطلق عليها الأصوليون "غربية".. نماذج لا تعترف بقوانين والد "إسراء" ولا استكانة وخضوع "أمينة".

البحث عن حل بديل؛ أو بالأحرى حل وسط، شغل تفكيرها في دائرته المحدودة.. لا ترغب حاليا سوى في الحد الأدنى.. ماذا إذن لو علموا بما ترغب فيه حقًا؟.. هكذا تساءلت في خلجة نفسها.. تساؤلات لم ولن يُقدَّر لها الخروج إلى النور حتى لا تُصاب عيناها اللتان عاشتا في الظلام طويلاً.

ولأن (الطبع يغلب التطبع)؛ فقد شربت من والدتها شربًا الخوف من الوالد وليس حبه.. مثلها مثل كثير من المتعبدين في مساجد الله وكنائس الرب؛ يهرولون إليه خشيةً وخوفًا، لا محبةً وشوقًا.. هكذا كانت علاقتها بوالدها.. فكانت المواجهة معه ضربًا من الخيال.

ارتضت صديقتنا بالأمر الواقع، وانقضت سنواتها في التعليم الأساسي من هذه المدرسة الابتدائية لتلك الإعدادية، ومن ثم الثانوية العامة بكل ما فيها من قلق وتوتر لا يضاهيه ما يصيب المشاهد ذو الأعصاب الخفيفة أثناء استلقائه على كنبة منزله أمام فيلم رعب أمريكي من نوعية "ghost ship". وكما هو متعارف فالجامعة عالم مفتوح؛ مجتمع آخر الدخول إليه يُعدُّ بداية جديدة لحياة أجدد.. هذا المجتمع الذي لن تفيد معه تحكمات الأب في ظل الرغبة الملحة من قبل "إسراء" في العيش وفق مفهوم الحرية غير المقيد بفتاوى.

- إسراء.. إسرااااء.. انتي يا بنتي.

- ها.. إيه يا ميرفت انتي بتنادي عليَّ ؟

- نعم.. د أنا بنادي عليكي من الصبح.. اللي واخد عقلك..

..... تعود إلى حالة الشرود مرة أخرى

- انتي يا بنتي.. ركزي شوية.. إيه رأيك اشتري الطرحة دي ولا دي أحسن ؟

- أوف.. أنا ماشية.

تعتدل من جلستها على هذا الكرسي الخشبي الذي زيَّن وسط المحل، وتخرج مسرعة دون النظر أو الالتفات لنداءات "ميرفت"..

- يا إسراء.. استني طيب.. ط.. هو فيه إيه حصل.

دقائق معدودة انتهت فيها "ميرفت" من الفصال مع البائع بعدما استقرت على إحدى الطرحتين.. أخذتها في تلك الحقيبة الملونة أحمر في أبيض والتى كُتب عليها "love" وخرجت.. تنظر يمينًا ويسارًا فلا تجد "إسراء".. تطلبها على هاتفها الجوال فلا تجيب الأخرى. لم تكرِّر "ميرفت" محاولاتها كثيرًا وعادت إلى منزلها.

الساعة الثانية عشر مساءً.. "ميرفت" نائمة في غرفتها، وكذلك كل من في المنزل.. جرس تليفون مفاجئ، بدا ان صوته أزعج الجيران.. انتفضت ميرفت من نومها، أجابت والنعاس يسيطر عليها:

- ألو... ألو

- أيوه يا ميرفت.. أنا أم إسراء.. هي عندك يا حبيبتي؟

- نعم!.. إسراء.. لا يا طنط.. أنا سبتها بقالي ساعتين.

- ساعتين! دي مارجعتش لحد دلوقتي.. طب متعرفيش هي فين يا حبيبتي؟

- لا مش.....

انقطع الخط.. سقطت سماعة التليفون من يد "أمينة"... جاءها زوجها مسرعا:

- إيه فيه إيه؟

- إسراء مش مع ميرفت صاحبتها وبتقول إنها سابتها من حوالي ساعتين.

- نعم!.. أمال راحت فين يعني؟.. أدي آخرة دلعك فيها.

- كلميها على تليفونها.

- تليفونها مقفول.

- ما شاء الله.. بنتك راحت فين يا ست هانم؟.. انتي اللي فتحتى عينيها على.....

وهو في ثورة غضبه العارمة تلك.. دخلت "إسراء".. لم تكن هي من خرجت من المنزل مساء اليوم.. إنسانة أخرى.. ترتدي بنطلون جينز وبوكليت وجزمة بكعب ١٠ سم، حتى أن حجابها كان قد اختفى!.. تدلى شعرها على كتفيها؛ شعر أسود لامع متوسط الطول ومموج.. وأحمر الشفاة يزين وجهها الأشقر..

لم تنطق.. فقط خطوتان داخل باب المنزل وتوقفت.. تنظر إليهما في صمت؛ قد يكون صمت الخوف، أو صمت المفاجأة في عينيهما.. أو هو صمت الشجاعة التي ما كان أحد يتوقعها منها..

دون أن يلقي كلمة واحدة.. تقدم إليها "السيد"، لطمها على وجهها لطمة أسقطتها أرضًا حتى خرجت منها صرخة مدوية.. أعقبها بلطمات على وجهها وجسدها وركلات بالأيدي والأرجل في أنحاء مختلفة منها.. مع سباب وشتائم وتشكيك فيها وفي عذريتها واتهامات بأنها عاهرة باعت شرفها!..

محاولات بائسة من الأم كي تخرجها من تحت يديه.. الدموع تسيل كمجرى مياه من عينيها دون أنين.. لا تقاوم.. فقط استلقت على أرضية المنزل، تتلقى ضربات والدها وكأنها جثة هامدة افتقدت للإحساس بالألم.

هرول سكان العقار إليهم.. رجال وسيدات من جيران "السيد" و"أمينة".. خلصوها من بين يديه.. أخذتها أمها إلى الداخل.. تجفف دموعها.. والأب مع جيرانه في صالون المنزل:

- والله ما تشوف نور الشارع دا تاني.. البنت فضحتني.

- صلي على النبي يا أبو إسراء ومتقولش كده، بنتك مفيش حد في أخلاقها ولا أدبها.. والكلام اللي بتقوله مايصحش، الناس تقول إيه.

- هي الناس لسه ما قالتش.. واحدة راجعة البيت بعد نص الليل وحاطة الأخضر والأحمر.. عايزني أعمل إيه يا أستاذ جاد ؟.. بس أنا اللي غلطان.. أنا هوريها الربابة من هنا ورايح.

انصرف القوم بعدما خاب أملهم في تهدئة الوالد.. مثلهم مثل العرب الذين خابوا في الاعتراف بدولة فلسطين منذ ٦٧.

أغلقت الأم باب الغرفة.. واتجهت نحو "السيد".. انقضت ليلتهما في صمت غير متوقع.. لم يغمض لهما جفن.. وعلى وجههما طبقات متراكمة من الهم.

- هو انتي بتصلي؟

- آه يا إسراء.. إيه المشكلة؟

- أصلك مش محجبة؟

- مفيش تعارض... وبعدين وأنا بصلي بلبس الزي الخاص بالصلاة..

- ممم.. بس ربنا فرض علينا الحجاب.. إنتي كدة بتعصي ربنا.

- ربنا رب قلوب يا إسراء.. وبعدين أنا مش مقتنعة بالحجاب.

- ممم.. طيب أنا حبيت اسأل.. مجرد سؤال يعني.

تركت "إسراء" زميلتها "إنجي" واستقلت الميكروباص من أمام باب الجامعة الرئيسي.. طوال طريقها المزدحم وهي تفكِّر فيما دار بينهما من حديث.. تحاول إقناع نفسها بعكس ما قالته إنجي.. تساؤلات في خاطرها تسعى للربط بين هذا الفعل وذاك؛ بين هذا المظهر وذلك الباطن؛ بين النية والرياء... على حالتها تلك كأنها عداء يفشل في محاولاته العديدة بأن يحصل على مركز متقدم.

دقائق قليلة استرجعت خلالها حديثها مع "إنجي" أثناء تواجدها في الجامعة.. وأحاديث أخرى مع كثيرات من بنات جيلها.. هذه الأحاديث والملاحظات التي اكتشفت من خلالها ضعف الحجة التي ساقها والدها طوال حياتها.. حمق الرضا بدور التابع المغيب لعقله.. سخافة السمع والطاعة دون تفكير.

توطدت بداخلها الرغبة في أن تكون.. الرغبة في الوجود الفعلي بعيدًا عن دور الكومبارس.. لم تكن يومًا من هواة التقليد الأعمى أو الرضا بالمقسوم.. هي فقط كانت مغلوبة على أمرها.. نعم هم ولو أجمعوا على رأي واحد فهم ليسوا على حق.. العبرة ليست بالكثرة؛ فالرسول كان واحدًا ضد قوم!.. هو بمفرده كان على حق، وهم جميعًا على باطل..

(ﷺ غير مسؤولة عما ورثتموه عن آبائكم وأجدادكم.. لستُ مسؤولة عما رسَّخه السابقون في ذلك المجتمع، وعمَّا ارتضاه اللاحقون.. هي حياة واحدة سأعيشها.. فليتركوني أعيشها كيف أشاء.. عجبًا لكم.. تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)... هكذا قالت لنفسها...

(يا أبي.. إني أكره فيك حب الذات والسطوة والتحكم.. أكره فيك تحفظاتك.. قيودك التي لم تكتفِ بفرضها على نفسك؛ بل عليَّ وعلى والدتي أيضًا.. أكره فيك كل مظاهر التدين الزائف.. كل ما تفرضونه عليَّ أنا وغيري بحججكم الواهية..

تستيقظ من سباتها العميق في التاسعة صباحًا على هذا الجرس المزعج.. حديث مقتضب مع "ميرفت".. تنهض بعده.. تتناول إفطارها سريعًا.. تحمل حقيبة يدها وتتجه إلى الجامعة.. هناك تلتقي بـ"ميرفت".. تستفسر منها عمَّا إذا كانتا قد تقابلتا بالأمس.. فتجيبها الأخيرة بـ"لا".. تبتسم إسراء ابتسامة سخرية من القدر.. وتجلس في أحد الأركان المواجهة لمبنى الامتحانات المتاخم لكلية الإعلام.. عشرات الطالبات تواجدنَّ منذ الصباح.. أشكالهن مختلفة، والسمة الغالبة هي الحجاب الذي حجبن به جمال شعرهن.. دقَّقت النظر لعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء.. الفارق لا شيء؛ إن لم يكن العكس.. وقع نظرها على تلك التي عرفتها منذ أيام.. أسرعت إليها لتسألها منذ متى وهي هكذا ؟.. ومتى قرَّرت التغيير ؟.. فأجابتها أنه لا شيء تغيَّ، فقط لكل مقام مقال ما داموا يرفضون أي محاولات للفهم... قالتها وتعالت ضحكتها، ثم غادرت.

عادت إسراء إلى ركنها المعتاد.. حملت حقيبتها بعدما دفنت فيها حجابها.. وهمَّت بالرحيل هائمة على وجهها.

الأستاذ مدني عبد الشكور العباءة

يتمتع بقدرٍ لا بأس به من المشاركة وسط النجوم في أعمالهم الفنية.. اعتمد عليه المنتجون والمخرجون وسمحوا له بتقديم أدوارًا جيدة نسبيًا..رغم الظروف القاسية التي تمر بها السينما في هذا الوقت، يواصل صاحبنا صموده وسعيه لتحقيق حلمه في المجد والشهرة والوصول لمقاليد هذه الصناعة؛ بل والتحكم فيها. أهداف مشروعة، لا يعيقها سوى بعض الحاقدين ممن يمسكون بزمام الأمور في هذا التوقيت، أناس يفرضون سطوتهم على هذا العمل وذاك؛ على هذا الفنان وغيره.

لم يتأثر "مدني عبد الشكور"، ولم يفقد أمله في تحقيق حلمه.. لكن تغيير هذا الواقع لم يكن بيده هو؛ بل بيد أناس آخرين دائمًا ما ابتعدوا عن أضواء السينما والمسرح؛ أناس اتسم طابعهم دائمًا بالشدة والبعد عن العاطفة.. هذا التغيير من جانبهم كان مغامرة لم يحسب "مدني" نتائجها جيدًا..فقد يأتي التغيير بالعكس.. وساوس تسيطر عليه: أيبقى في ظل هذا القدر من التقييد على الصناعة التي يعشقها ويهدف من وراءها للوصول إلى الأفضل؛ لمضاهاة أقرانه في أوروبا والدول المتقدمة.. أم أنه يدعو الربَّ أن يأتي التغيير حتى وإن كان غير محسوب.

في ظلِّ حالته المترددة الحائرة بين المشرق والمغرب تلك، استيقظ "مدني" ذات يوم على قرار مفاجئ.. من في الظل خرجوا إلى النور!.. أنهوا ما كان قائمًا من تقييد واستعمار لصناعة الفن..

هبَّ صاحبنا ناهضًا من فرشته التي لا بأس بها في تلك البناية التي اتخذت شكلاً على الطراز الأوروبي في ضاحية من ضواحي آثار إسماعيل الخديوي.. تفاؤل يمسحه شعاع خوف وترقب.. أحلامه بالمجد والسلطة ما بين الحقيقة والسراب.

"السراااب" هكذا كان الواقع بعدما استفاق من صدمته الفاجعة.. مصطلحات جديدة على ما اعتاد عليه بدأت في الظهور على السطح.. القدر الذي تمتع به من الإبداع والفن خلال أيام مضت لم يعد بالإمكان الآن.. الشمع الأحمر على كل أبواب مقرات الإبداع والفن.. إعلان من قبل قادة الظل أنه لا إبداع بعد اليوم..

فترة جفاف عاشها "مدني" لم تكن بالقليلة، قُدِّرت بنحو عشرين عامًا من الجفاء.. ارتكن فيها صاحبنا في مدخل شقته تلك، لم يفارقها بسبب تحديد الإقامة.. شعره خطَّ الشيب فيه، وملامح وجهه وضح فيها جليًا مرور سنوات الدهر..

وفي حالة اللاحياة واللافناء تلك؛ استيقظ على بارقة أمل من هذا الرجل صاحب "البايب".. عادت الحياة لجزء ضئيل من طبيعتها قبل عشرين عامًا من الآن.. نفض "مدني" تراب السنوات الماضية عن جسده وعاد لما عشقه دائمًا.. كانت العودة شكلية ليس أكثر، تحول فيها "مدني" من مبدع إلى إنسان آلي يُدار بريموت كنترول، لا ينفذ سوى أوامر.. ضرب كفًّا على كف.. أصبح بين نارين؛ إما العودة للانطواء المثير للشفقة في بنايته التي جاوز أعمار سكانها سبع عقود وهذا البواب الذي لم يتحرك من على كرسيه أو يغيِّر جورناله منذ أن وقعتْ عليه عينه.. أو الرضاء بدور الكومبارس. ارتضى صاحبنا الخيار الثاني.. واتخذ من دور "الكومبارس" شكلاً حياتيًا جديدًا على أمل التغيير مرة أخرى، لكن تلك المرة ليست كالسابق؛ بل تغيير للأفضل.

انتظر "مدني" حتى انقضت سنوات "البايب" القصيرة، وأتت سنوات "فقر الثلاثين"، لم تختلف حياته فيها كثيرًا، فاستمر في دور الكومبارس.. يحلم بالحصول على دور بطل ثاني أو بطل أول لأي عمل فني يحمل رسالة توحي بثورة.

ومع انقضاء فترة "الثلاثين" في ظل تقدم هذا الطائر في العمر ومعاناته في الانقضاض على فريسته مثلما كان يفعل في السابق.. ظهر شعاع جديد يحمل بين جنباته كثيرًا من الطموحات والآمال التي طويلاً ما انتظرها.. فكَّر قليلاً حتى لا يقع في خطئه الأول.. دعا زملاءه من الكومبارس وأصحاب أنصاف الأدوار.. حثَّهم على التجمع والتحالف ضد أي شيخ قبيلة أو إمام زاوية يسعى لفرض مصطلحاته على السينما التي عشقوها جميعًا.. وضعوا أيديهم في أيدي بعضهم.. غربان تضرب أيديهم حتى تنفك.. حتى الآن يحاولون الصمود.. هم الآن في عنق الزجاجة.. ولم يتبق سوى أيام قلائل هي الأصعب في تاريخ التجاهل والحرمان من الإبداع الذي عايشوه عقودًا... "مدني عبد الشكور" في جلسته الأخيرة معهم، أقسم على عدم التفريط في الفرصة... انقضى الاجتماع وبقيت الأيام تتوالى.. أيام المستقبل القريب التي ستبيِّن الكثير، إمَّا أن يحقِّق "مدني" حلمه، أو يعود للانطواء في بنايته داخل دائرة السراب المتلفح بعباءة.

حوار بلا طائل مع رجل يرتدي أبيض في أبيض

ليس منذ طفولته.. ولكن منذ أن بدأ يعي ويدرك ما يدور حوله.. بعد فترة من ذهابه إلى المسجد بصحبة والده في قريتهم الفقيرة.. بعد توالي حركات الصلاة من سجود وركوع وغيره؛ بدأ يتساءل تساؤلات داخلية لا يستطيع أن يجهر بها ولا يعرف لماذا.. هل لأنه لو أجهر بها سيتم تكفيره؟.. أم أن هناك أشياء فوق مستوى عقله البشري الصغير؟... لا يدري.

التساؤلات تزداد يوميًا، حتى امتلكت حياته كسلطان من سلاطين الدولة العثمانية له عبيد يؤتمرون بأمره.. يعيش حالة من الهذيان تعصف به كرياح عاتية لم تنجح أشرعة السفينة في التصدي لها.. ليالٍ طوال على هذا المنوال... أخيرًا النوم الذي هجره من قبل يجد طريقه إلى جفونه، يغرق فيه.. يظهر له وسط الضباب شخص بهيئة ليست غريبة عليه، هيئة انتشرت وشاهدها كثيرًا وقت مجدها الساقط.. وسط هالة بيضاء.. يرتدي أبيض في أبيض.. يناديه بصوت أجش:

- يا هذا: ماذا بك؟

- أنا حائر.. لا أنتمي لهذا العالم أو تلك الدنيا..

- وإلاما تنتمي إذن؟

- لا أدري، وعقلي متوقف عن التفكير.

- أخبرني ما يدور بداخلك.

- أنا لا أدري لِمَ أنا هنا.. أنا لم أختر ذلك.. ما الدافع وراء وجودي؟

- لتعبد الله.

- وهل الله في حاجة لعبادتي له ؟.. لقد كان لديه الملائكة قبل خلقي.

- لكل شئ حكمة عنده.

- هل يرغب في أن يتسلى بنا كالدُمى ؟

- خُلقتَ لتعبد الله.

- وكيف تكون العبادة ؟

- بتطبيق كل ما أمرك به من صلاة وصوم وزكاة وحج وتجنب الكبائر.

- وما الهدف من الصلاة.. إنه ورغم إجباري على الوجود في هذه الدنيا فأنا أحبه.. لماذا إذن أصلي ؟

- لأن الله فرض ذلك.

- البعض يفعل أوامر الله دون اقتناع، ولكن نتيجة خوف من عذاب سمعوا عنه في العالم الآخر.

- كلٌّ حسابه عند ربه ولا يعلمه غيره.

- أنا عبدٌ.. إذن أنا لستُ حرًّا.

- أنت حرٌّ.. لكنك عبدٌ لله.

- هل حريتي مطلقة ؟

- لا، كل شيءٍ مقدَّر عند الله.. أنت حرٌّ في أفعالك التي ستُجزى عليها يوم القيامة.

- هل الله يعلم أفعالي قبل قيامي بها ؟

- الله يعلم كل شيء.. وكلٌّ عنده في لوحٍ محفوظ.

- إذن حريتي تدور في دائرة مفرغة.

هو: صمت.. لا تجادل ولا تناقش..

- كيف لي أن أُعاقَب على فعلٍ قدَّره الله قبل وقوعه؟.. كيف لي أن أُحاسَب وأنا هذه المسرحية التي رسم فيها المؤلف دوري ولا يمكنني الخروج عنه؟.. أين هي الحرية إذن؟.

- الإنسان حرٌّ في أفعاله.. انتهى.

تجاوز عن تلك النقطة، رغم أنه لم يصل لطائل أو إجابة مفيدة مقنعة.. وسأل:

- أصحاب الديانات الأخرى ما مصيرهم؟

- الله يفصل بينهم يوم القيامة.

- هناك أمور نسبية والحقائق أصبحت جميعها غير مدرّكة.

- الحلال بيّن والحرام بيّن.

- لكن ظروف العصر تختلف، والأمور والقضايا أصبحت أكثر تشابكًا وتعقيدًا.

- القرآن لكل زمانٍ ومكان.

- لكن البعض قد يحرِّف كلام الله.

- { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }.

- أرى أمورًا أستعجب لها، وفتاوى من علماء لا تستهويني.

- أنت ينطبق عليك قوله {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ}

بعدما ضاقت نفسه:

- أنا لم أعد أطيق.. إجاباتك غير مقنعة.. أنت تشبه إنسانًا آليًا حفظ الكثير عن مبرمجيه ويردِّد ما حفظه دون تدبر أو تفكير أو إعمال للعقل.

- عقلك له سقف ولا يمكنه استيعاب كل شئ.. خذ ما أمليه عليك ولا تناقش.

- ديننا قائم على العقل والتفكير.. كيف إذن أرتضي بما يقوله هؤلاء وهؤلاء دون أن أتفكر.

- هؤلاء من تستهزئ بهم هم أعلم منك.

انتظر قليلاً وهو صامت دون التحدث ببنت شفه.. يكظم غيظه.. فبعد كل هذا الحوار لم يصل إلى طائل.. وبعد لحظات نظر إليه وسأل في حدة:

- وهل هو في حاجة لحبنا إليه؟

- هو: ....

تساؤلات أكثر وأكثر بداخل صاحبنا تتصارع كالأمواج، وصاحب الرداء الأبيض هذا لا يملك الإجابة.. أصابت صاحبنا خيبة الأمل.. هل تساؤلاته قُدِّر ألا يكون لها إجابة؟

انتفض مُسرعًا في رحلة العودة إلى عالمه المجبر عليه.. وفي الطريق صادفه ذلك الرجل الذي كان يسمع عنه منذ كبر.. حاول الوصول إليه، لكن كان هناك سدٌّ منيعٌ يفصله عنه.. كان يتفوه بكلمات تصحبها إشارات لم يستطع "أحمد" تفسيرها جيدًا.. أعمل عقله للوصول إلى نتيجة.. لوحه شفافة تملأ المكان كُتب عليها:

(اقرأ حتى تصل لليقين - لا تسمع لكل من أطلق لحيته وادَّعى بأنه شيخٌ عالم - لا تفعل إلا ما تقتنع به ويمليه عليك قلبك) .

يوسف الـمُسِّن

على كرسيه الهزَّاز المصنوع من الخشب.. جلس بعدما ارتدى نظارته ذات العدسة المكبرة وبين يديه كتاب "الأغاني" للـ"أصفهاني".. في بلكونة الدار وأمامه حديقة مليئة بالأزهار والورود مختلفة الأشكال، افترشت أسفل منها سجادة خضراء من النجيلة.. ساعات يقضيها "الشيخ يوسف" في جلسته تلك يوميًا.

لم يغيِّر كتابه طوال السنوات الخمس التي قضاها في الدار منذ وطأت قدماه إياه.. ينتظر حتى تربد المشرفة على كتفه لتجبره على الدخول إلى غرفته.. لا يطاوعها في أحيانٍ كثيرة.. يتمسك بكرسيه ويبكي بعدما تتقطب جبهته ويحمر خدَّاه كطفل في السادسة من عمره.. تنهره بشدة كأنها أمٌّ تأمر طفلها بالذهاب إلى النوم من أجل يوم دراسي سيبدأ في السابعة صباحًا... مع محاولاته المستميتة البائسة؛ يأتي "فرج" و"علوان" ليحملانه رغمًا عنه إلى سريره، ثم يسرعا بغلق الباب عليه حتى الصباح.

بعد تنهدات نتجت عن مجهود شاق بذله في مقاومة رجلي الأمن، استلقى الشيخ يوسف على سريره الذي لا يكفي سوى لسواه.. وعاد بذكراه إلى مسجد "عباد الرحمن" الذي ظلَّ إمامًا له لمدة تزيد عن ثلاثين عامًا، كان فيها رجلاً ذا هيبة؛ يُجلَّه الكبير قبل الصغير، وكانت حياته رغدة من منزله إلى المسجد أو الأزهر حيث اعتاد الذهاب إلى الجامع الأزهر وجامع الحسين، وكانت له حلقة من طلاب زهدوا الحياة ووهبوا أنفسهم للعلم الديني وفقه السنة.

له زوجة أُميّة لا تجيد القراءة ولا الكتابة، كانت والدته رحمها الله قد اختارتها له من بلدتهم في الريف المصري، عاش معها سنواتٍ عدة، حيث أنجب إدريس ويعقوب وابراهيم، وتوفيت في ولادتها الأخيرة لابراهيم، وكان ولداه الآخران ما زالا في سنٍّ صغيرة.. فشار عليه القوم من أهل "الحتة" بأن يتزوج امرأة صالحة ترَّبي أولاده وتتكفل بمتطلبات المنزل.. وبالفعل، بعد أربعين "سعاد" بأيام قليلة اجتمع الشيخ يوسف وعدد من الجيران والأهل في منزل "سعدية" بائعة الفجل والكرات في الحارة والتي لديها ابنة في سنِّ العشرين؛ أرملة بعد وفاة زوجها عقب عامين فقط من زواجهما في حادثة حريق القطار المشهورة.

كانت "ثناء" امرأة مثالية لحالة شيخنا يوسف، فهي أرملة، وظلَّت عامين دون أن تنجب؛ حتى اعتقد القوم أنها عاقر.. فسارع "يوسف" في طلب يدها.. ولم تنتهِ الجلسة العامة لكبار الزوار حتى قُرئت الفاتحة..

أيام قليلة وانتهى المأذون من كتب الكتاب بعدما دفع الشيخ يوسف مهرًا معقولاً سمح لـ"سعدية" والدة "ثناء" باستئجار محل تبيع فيه حاجتها بدلاً من فرشتها الممتدة بجانب الطريق.

عاشت "ثناء" مثلما أرادها الشيخ يوسف: مطيعة راضية، عطوفة على أطفاله؛ لم تنهرهم على فعلٍ قط.. كانت لهم أمٌّ ثانية، حاولت بغريزة الأمومة التي حُرمت منها أن تجد فيهم إشباعًا لشعورها بالنقص.. لكنهم لم يكونوا كذلك.

مع توالي السنوات وتقدم الشيخ يوسف في العمر.. حلَّ به مرضٌ دفعه للجلوس في المنزل، حتى أنه لم يعد يتردد على المسجد كما كان يفعل واكتفى فقط بأداء صلاة الجمعة التي كان يأخذه إليها نجله الأصغر إبراهيم.. أما إدريس ويعقوب فكلاهما هجر منزل أبيه بعدما ذاعا أن زوجة أبيهم لا تحبهم وتسعى للتفرقة بينهم وبينه، وهو الأمر الذي ظلَّ حديث الحارة لأيام، حتى تحدثت النساء بالسوء عن "ثناء" وعن كيدها، واختلقوا القصص والروايات حول تعذيبها لهم وتجويعهم دون أن يعرف أبوهم بكل هذا بسبب مرضه الذي عزله رويدًا رويدًا عن العالم.

حقدٌ وغضبٌ يسيطر على إدريس ويعقوب بعدما شرَّدتهم الأيام، فعملوا أُجراء هنا وهناك، وتحاكى القوم عنهم وعمَّا كانا فيه في منزل والدهما وما وصلا اليه الآن.

وصل الأمر إلى أبيهما الشيخ يوسف الذي نهض من على سريره النحاسي وفي صوته حشرجة حيث طالب ولده إبراهيم بأن ينادي في طلبهما لحاجة في نفسه.

تحدَّث يوسف في خلوته عن رغبته في إعادة شمل الأسرة مرة أخرى وإنهاء هذا الخلاف الزائف.. وبالفعل ذهب إليهما إبراهيم وأخبرهما بطلب والدهم، وأنه يريدهما عنده يوم الثلاثاء المقبل بعد صلاة العشاء.

العديد من التساؤلات طرحها إدريس ويعقوب على إبراهيم بخصوص الزيارة، ولماذا يطلب والدهم لقائهما.. فأخبرهما بأنه لا يعلم شيئًا عن هذا الأمر وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(لماذا يطلب مقابلتنا؟.. لا بد وأنه يسعى كي يشمت فينا، لم يكفيه ما يحدث لنا بسبب زوجته)... هكذا تحدث الأخوان.. حتى قرَّرا في النهاية الذهاب لأبيهما، وفي نفسيهما الكثير من بغضاء الأيام الماضية.

على إحدى مقاهي الحسين جلسا ومعهما رفيقهما "صدقي".. تبادلوا الجوزة والحشيش والبيرة، وهم في حالة من النشوة الوقتية، حتى جاءهم الحاج عطية ورجاله، وكان لهذا الرجل دَيْنًا عليهما سداده له، وقد ضاق بهما حتى منحهما فرصة أخيرة كي يردا المبلغ الذي قُدِّر بآلاف الجنيهات.

لم يجدا مفرًا، ولا يعرفان ما هي الحيلة للخروج من هذا المأزق، حتى نطق "صدقي" وقال لهما:

- لماذا لا تلجأن لوالدكما ؟.. أو لميراثكما في المنزل ؟

لم يستوعبا النصف الثاني من حديثه، وبدا على وجهيهما نوعٌ من البلاهة والدهشة.

- إدريس: ماذا تقول ؟

- صدقي: أقصد أنه إذا لم يقف بجواركما فاجعلاه "المرحوم".. ها ها ها ها..

وراح ينفس دخان الجوزة.

- يعقوب: أنت أكيد مجنون.. عايزنا نقتل أبونا.. يللا يا إدريس من هنا..

رحلا تاركين "صدقي" بضحكاته الشريرة المتقطعة.

وفي طريق عودتهما دار الحديث مرة أخرى في رأس "إدريس" الذي لم يعقِّب على كلام "صدقي" :

- بص يا يعقوب، إحنا لا يمكن نقتل أبونا، بس انت شايف حل تانى للأزمة اللي احنا فيها ؟

- نروح له ونتكلم معاه.. مش هو طالب يقابلنا.. وأوعى تفكر في حاجة زي كده، أنا بقولك أهو.

- أنا بفكر في حاجة تاني يا شقيق.. لو إن أبوك متغيب عن البيت يبقى إحنا أصحاب الملك.. ولا إيه ؟

- وأبوك هيغيب إزاي؟ هو فيه حتة بيروحها؟!.. دا حتى محل العطارة مأجره من سنين.

- بص يا أخي.. والدك حاليًا مريض ومحتاج الرعاية، ووجوده زي عدمه.. وإحنا في شبابنا والدنيا ملطشة معانا.. هو هياخد زمنه وزمننا ولا إيه ؟..

- أنا مش فاهم.

- دور المسنين كتير دلوقتي، وفيها رعاية وخدمة وحاجة زي الفل.. والأيام اللي فاضلين للشيخ يوسف يتعدوا على الصوابع..

- ممم مممم، بس يعني هو دا ممكن يحصل؟.. وهتقنعه إزاي؟

- خليك معايا بس ونفذ كل اللي بقولك عليه.

مساء الثلاثاء.. وكما هو محدد للقاء أبيهما، جهَّز كل منهما نفسه، فارتدى زيِّه المهندم، وخرجا في طريقهما للمنزل الذي هجراه طوال الفترة الماضية.

• • •

في صباح اليوم التالي، فتح باب غرفته الذي كان قد أُغلق مساءً.. أخبرته المشرفة بأنه حان ميعاد الفطار.. وعليه نهض الشيخ يوسف وارتدى ثيابه وخرج لزملاء الدار من المسنين المنبوذين من مجتمعهم وأسرهم.. تناولوا الإفطار وهم يتبادلون حديثًا ساخرًا من المشرفة والعاملين ورجال الأمن.. وحملت وجوههم المكتئبة ضحكات كرتونية قديمة.

أنهوا إفطارهم ليجلس كل منهم في مكانه المفضل، فهؤلاء لجأوا للحديقة، وآخرون عادوا لوحدتهم في الغرف؛ تدور بخواطرهم أفكار متصارعة حول المصير الذي انتهوا إليه في تلك الدار التي تحيط بها الصحراء من كل جانب.

كم كره الشيخ يوسف يوم الجمعة.. نعم يوم الجمعة الذي كان أعزَّ الأيام على نفسه حيث يتواجد بالجامع الأزهر ويؤم المصلين ويزود شبابه بالعلم.. أصبح الآن يدر عليه ذكرياتٍ من الحزن العميق والحرج البالغ عندما يجد كثيرين يأتون لزيارة ذويهم، وهو في وحدته اليائسة من أن يأتيه أحد.

• • •

تصادف قدوم إدريس ويعقوب إلى منزل أبيهما؛ خروج إبراهيم والست ثناء لزيارة والدتها سعدية المريضة.. فدخل الاثنان إلى المنزل الذي فُتحت أبوابه، فوقع نظرهما على أبيهما الذي مدَّد جسده على سريره وفي يديه كتاب "الأغاني" للأصفهاني.. ارتسمت البسمة على شفتيه وغمرته فرحة عارمة بقدومهما ودعاهما لحضنه، وهو ما حدث بالفعل.. دار بينهم حديث طويل حول ما حدث، وأحوالهما، فأخبروه بضيق الحال..

دعاهما أبوهما للعودة إلى المنزل ومشاركة أخيهما إبراهيم في إدارة محل العطارة الذي استعاده من المستأجر، لكن حقدهما وشعورهما بتفضيل إبراهيم وزوجته ثنية عليهما؛ دفعهما لموافقته على مضض لحين تحقيق ما يخططان له..

وعادا مرة أخرى للمنزل، ففرح بقدومهما إبراهيم كثيرًا، وكذلك ثناء التي تناست الماضي وما فيه.

أيام كثيرة متوالية عاشا فيها سويًا؛ شهدت افتعال إدريس ويعقوب للمشاكل مع أهل الحارة، حتى إنهما لم يكونا ليتقبلا أي حديث من أخيهما الأصغر.. وظهرت السرقات في المحل منذ وطأت قدماهما أرضه.. واشتكى إبراهيم لأبيه كثيرًا، لكن الأب لم يكن ذا حيلة مع تقدمه في العمر وتدهور صحته.

وفي إحدى ليالي الشتاء.. ذهبت ثناء لوالدتها من أجل توفير ما تحتاجه وقضاء أعمال المنزل لها وتجهيز ما يتيسر من طعام، وخرج إبراهيم مع أصدقاءٍ له لمشاهدة مباراة كرة القدم في ختام الدور الأول من الدوري.. كانت هذه بمثابة فرصة مواتية ليعقوب وإدريس.. فدخلا على أبيهما وأيقظاه من نومه وهو لا يدرك ما يحدث.. أقنعاه بأن طبيبًا افتتح عيادة له بالقرب من الحارة ويقال إنه جيد جدًا في علاج الحالات المماثلة لحالته.. دقائق وكانا قد حملا الشيخ يوسف ووضعاه في سيارة ملاكي ماركة بيجو ٥٠٤ والتى انطلقت يقودها "صدقي".

سارت السيارة أكثر من ساعة حتى وصلت إلى بناء كبير منعزل وسط الصحراء تعوي الكلاب من حوله؛ كُتب عليه "دار الرعاية للمسنين".. لم يلاحظ ذلك الشيخ يوسف الذي راح في غيبوبة متقطعة من طول المسافة، ودخل إلى الدار وهو يظنها عيادة الدكتور الموعود.. جلس يعقوب مع أبيه وذهب إدريس إلى الإدارة حيث أبلغهم رواية زائفة حول مشكلات بين زوجته وأبيه أدَّت لاستحالة العيش معًا، وهو ما دفعه لإحضاره إلى الدار.. وقَّع على أوراق تسليمه لوالده كمن يسلِّم بضاعة لمحل البقالة ورحل مع يعقوب الذي استأذن والده لقضاء حاجته.

خرجا مهرولين نحو "صدقي" الذي وقف بجانب السيارة يدخِّن سيجارته "الكليوباترا".. استقلا السيارة وانطلقا بسرعة..

لدى عودتهما إلى المنزل، كان إبراهيم وثناء وعدد من الأهالي والجيران قد تجمعوا في المنزل تسيطر عليهم حالة من القلق على الشيخ يوسف الذي لم يعد موجودًا في غرفته.. وعند دخولهما بادرهما إبراهيم ومن معه بسؤالهما عن أبيهما.. فلم يجدا الا إجابات الاستنكار والنفي من قبل صاحبينا.. بل لم يقف الأمر عند هذا حتى بادر إدريس بالسؤال عما حدث له خاصة وأنهما كانا قد خرجا مع "صدقي" في سهرة بعدما تركا أبيهما في مكانه يقرأ كتاب "الأغاني".

صراخٌ وولولة من جانب ثناء ونساء الحتة اللواتي تجمعنَّ حولها لمواساتها.. وحالة من الصمت المبرر تسيطر على إبراهيم الذي لم يبعد نظره عن شقيقيه.. ساعات قليلة ورحل القوم على أن يأتوا للسؤال فيما هو جديد بخصوص الشيخ المتغيب.

خيَّم الحزن على المنزل.. فأُغلق محل العطارة، واعتكف إبراهيم في غرفة أبيه لا يغادرها.. أما إدريس ويعقوب فبادرا بعد أيام قليلة بفتح المحل ومعاودة نشاطه، حتى إنه بعد عودة إبراهيم للعمل فيه بإلحاح من ثناء قابله أخواه بوجهيهما القبيحين:

- بص يا إبراهيم يا أخي.. أبوك دلوقتي مش موجود، وإحنا أخواتك الكبار، يعني كل شيء في تصرفنا.. والمحل أدينا مشغلينه، عايز تيجي تشتغل ويبقى ليك أجرتك.. حلو الكلام..

- إيه اللي انت بتقوله دا يا إدريس وإحنا من امتى بينا الكلام دا ؟

- هو دا الكلام اللي عندي، ولازم تبقى عارف إن الوضع اختلف دلوقتي.. وأبوك مبقاش موجود.. ها.. ربنا يرجعهولنا بالسلامة.

- انت كلب وخسيس.. أبوك فين يا إدريس.. وديت أبوك فين يا يعقوب؟...

قالها وانهمر في بكاء شديد، رحل بعده يطوف الشوارع بحثًا عن أبيه الشيخ يوسف.

لم يكن الأمر عاديًا بالنسبة لشيخنا.. الذي فقد النطق حال اكتشافه أنه في دار للمسنين.. وخضع طوال سنته الأولى في الدار للعلاج حتى استعاد نطقه تدريجيًا وتحسنت حالته قليلاً، ولو أن الاكتئاب لازمه حتى يومه الحالي.

أيام هام فيها إبراهيم على وجهه بحثًا عن أبيه دون فائدة.. عاد بعدها ليجد ثناء قد هجرت المنزل وعادت إلى بيت أمها.. فذهب إليها، حتى علم بما فعله يعقوب ومحاولته التهجم عليها وهي في المنزل، حتى أنه ضربها ضربة على وجهها أسالت الدماء منه، ومق ثيابها حتى ظهرت عورتها، ولم يكد يخرج سمومه بداخلها حتى ناداه رفيقه فأفلته، ولملمت نفسها ورحلت خلسة.

لم يصدِّق إبراهيم نفسه وجلس على كنبة من الخشب واضعًا يديه فوق رأسه المنكب على الأرض، يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة.. فقاطعت ثناء خلوته الفكرية تلك وطالبته بالعودة للعمل لكسب رزقه ورزقها هي وأمها من خلال المحل الذي اشتراه لها الشيخ يوسف وقت تقدمه لخطبتها قديمًا.. فوافقها الرأي.. وورثت ثناء وإبراهيم عن أمها بيع الخضار... وسارت الأمور بشكل أفضل قليلاً.

أما يعقوب وإدريس فقد وقعا في شرِّ أعمالهما بعدما ألقت الشرطة القبض عليهما بتهمة حيازة المخدرات والاتجار فيها، وهي التجارة السرية التي لجآ إليها من خلف ستار محل العطارة بعد تورطهما في ديون كبيرة مع الحاج عطية.

وفي صباح يوم الجمعة بعد خمس سنوات من اختفاء الشيخ يوسف.. وجد إبراهيم ظرفًا بعنوان الدار حيث يتواجد أبوه؛ كان "صدقي" قد وضعه ليلاً أمام محل الخضار ورحل دون أن يحدث أثرًا.. قرأه إبراهيم فأسرع لـ"ثناء" كي يخبرها، واستقلا سيارة خصوصي نحو العنوان المكتوب في تلك الورقة...

دخلا إلى الدار فوجدا الشيخ يوسف قد أدار لهما ظهره وهو يجلس على كرسيه الخشبي في البلكونة وفي يده كتاب "الأغاني" حتى نادت عليه المشرفة التي أخبرته بزيارة من أجله.

- زيارة.. أنا ؟!..

نهض من جلسته بصعوبة لينظر خلفه حتى يجد إبراهيم وثناء وقد امتلأت أعينهما دمعًا.. سقط الكتاب من يده واحتضن إبراهيم والده وكذلك ثناء.. وبعد قليل كانا قد جهزا الشيخ للرحيل والعودة مرة أخرى لمنزله.

وفي وداعه لزملاء الدرب بادره أحدهم باستنكار قائلاً:

- ماشي ليه مع إنك هترجع تاني ؟

لم يجبه يوسف، وبدا على وجهه دهشة غريبة.. تركه ورحل بعدما استقلوا السيارة ذاتها، وعادوا ثلاثتهم إلى الحارة.

هناك لم يُستقبل الشيخ يوسف استقبال الأبطال.. ولم تنتظر الحارة قدومه.. فالسنوات الخمس التي غابها؛ لم تبقِ من ثمار شجرة جيله إلا القليل النادر.. فمات كل من رافقوه شبابه وشيخوخته حتى أم ثناء وافتها المنية قبل أيام من عودته غير المتوقعة.. وغيَّرت الحارة جلدها بأناس وجيل آخر.. لم يعد له مكان فيه.

رغم ذلك كان فرحًا لعودته لمنطقته التي شهدت ذكرياته؛ حلوها ومُرَّها.. وعاود حياته مرة أخرى، لكن لم تسري الأمور على ما يرام.. فرغم حرص إبراهيم على راحته ووجود ثناء بجواره.. لم يقدر الشيخ يوسف على مواكبة مجتمعه المحيط الذي يهرول سريعًا كسيارة فيراري.. لم ينجح في اللحاق بركب المادية الحاكمة.. لم تروقه عنصرية الجيل الجديد تجاه المسنين أمثاله.. فقرَّر العودة مرة أخرى خلف أسوار الدار.. وسط أناس لن ينكروا حقه في الحياة والمشاركة بفاعلية.. أناس لن يقبلوا بأن يكون مجرد مسودة عمودية على هامش الصفحة.

أعــرج

شعورٌ داخلي بالحقد على زملائه ممن سبقوه سيرًا إلى المدرسة، وإحساس بالنقمة على ابتلاء أصابه في سنٍّ صغيرة... هكذا كان صاحبنا يعاني منذ عام ونصف على ميلاده؛ مرورًا بسنوات التعليم الأساسي حتى أصبح عمره ٢١ عامًا.. "أعرج".. لديه ساق أكبر من الأخرى.. هذه الحالة التي تستلزم جهازًا عقيمًا يجعله "سبيشيال وان" بين جميع الأصدقاء من الأصحاء.

تساؤل دوري كرَّره على مسامع والدته التي ارتكنت على مصطبة داخل منزلهم الصغير وهي تندب قدرها صمتاً من خلال نظرات أسى وحزن وشفقة على ابنها العاجز.. لماذا أنا هكذا؟.. لماذا لا يرتدون هم هذا الجهاز ؟.. إجابات الأم البائسة لا تفيد.. وعقله متشبع بمعايرة زملائه الأطفال له خلال لعبهم الكرة في الشارع.

وُلِد آدم في فجر يوم التاسع عشر من أبريل ببداية التسعينيات، في قرية بصعيد مصر لا يتجاوز تعداد سكانها ٢٠٠٠ نسمة، لأب يعمل بالأجرة في موانئ السويس وبورسعيد والإسكندرية، وأم ربة منزل لا تجيد القراءة والكتابة، لديه أخ يكبره في السن بثلاثة أعوام..

وُلِد صاحبنا سليم البنية والجسد، شعره أسود وعيناه سوداوان.. حتى بشرته تميل إلى السمراء.. في منزل لا تتجاوز مساحته ثُلث قيراط، يتكون من غرفتين صغيرتين وحمام متر في متر، وصالة تُستعمل أحيانًا كمطبخ لإعداد الطعام الذي لم يكن بطبيعة الحال يشتمل على اللحمة إلا يومًا واحدًا في الشهر.. وسلم من الخشب يصعدون من خلاله للسطوح التي امتلأت بـ"طبابيع" الخبز.. وفرن بلدي تعمل بوقود الأخشاب وقش الأرز..

نشأ هذا الطفل في سنته الاولى سعيدًا رغدًا رغم ضيق الحال.. لم تكن والدته "منى" تضيق بحال "رمضان" زوجها، بل عملت على مساعدته في مصاريف المعيشة، بتربية الطيور في المنزل ومن ثم بيعها.. راضية مستكينة في منزلها الفلاحي الصغير.. تنتظر يوميًا انقضاء أيام الشهر حتى يأتي لها رمضان محمل بالفاكهة واللحمة ومتطلبات المنزل، بعدما أمسك بمهيته وأسرع لبلدته في أجازة لا تتجاوز ٥ أيام.

سارت أيام "رمضان" و"منى" ونجليهما هكذا في سعادة محدودة حمدا ربهما عليها كثيرًا، إلا أن ابتلاء المولى لهم أصابهما في مقتل.. ابتلاء لم تقدر عليه صلواتهما أو عملهما الصالح..

"رمضان" في ميناء بورسعيد يحمل أشولة الغلال، منذ الفجر وحتى المساء.. انقضى يومه واتجه كعادته نحو خرطوم المياه الذي امتد في الموقع.. استحمى بـ"بروة" الصابون التي تبقت معه، وارتدى ثيابًا نظيفة غير ثياب العمل، وجلس مع رفقائه المعذبين في الأرض يتناولون الشيشة والشاي.. فإذا بـ"منتصر"؛ الذي يسكن بجوار "رمضان" في البلدة؛ يأتيه ليبلغه بأن نزلة حادة وقعت على ابنه "آدم"..

هبَّ مفزوعًا من جلسته:

- إيه اللي انت بتقوله دا يا منتصر الولد ماله؟ ما أنا سايبه كويس.

- والله يا رمضان يا خوي صحينا أولة امبارح على صريخ مراتك، ولمَّا الجماعة عندي راحوا يشوفوها لقوا آدم.. أنا مش عارف أقولك إيه..

- قول انطق، الولد ماله؟

- آدم رجله اليمين اتشلت.

وقع النبأ على "رمضان" كالصاعقة.. بدا كأنه حاوي لدغه ثعبانه الذي رافقه طوال مهنته.. بسرعة استفاق من دهشته المفاجئة، وحزم مخلته وعاد لزوجته.. بوجوم ولهفة لرؤية نجله المصاب.. أسرع إليه؛ يرفعه من أعلى الكنبة التي استلقى عليها.. يحاول إيقافه على ساقيه.. ساقه اليمنى تنكمش كجنين في بطن أمه، ترفض كل المحاولات لتغيير موضعها.. ينادي رمضان على ابنه أن يقف على ساقيه.. محاولاته باءت بالفشل مثله مثل والدة ميشيل في فيلم "black".. ضرب كفًّا على كف.. أخرج ما في جيبه من نقود؛ نقود قليلة.. حمل ابنه وهرول إلى عيادة الدكتور "عبد الخالق حافظ" أحد أشهر أطباء العظام في محافظته.. يقف متسمرًا هو وزوجته أمام ابنهما الذي خلع عنه الطبيب ثيابه وظلَّ يحرك في ساقه يمينًا ويسارًا وإلى الأعلى.. ينتظران بلهفة أن يمنحهما الأمل.. دعوات في السرِّ أن يخفِّف من مصابهما..

ينتهي الطبيب من كشفه ويعود إلى كرسي مكتبه الذي امتلأ بكُتب طبية وأقلام ودفتر روشتات.. الأم تعيد "آدم" داخل ملابسه مرة أخرى.. ورمضان يقف أمام الدكتور وعلى وجهه ابتسامة أسى، ينتظر بلهفة ما سيقوله له..

- بص يا معلم رمضان ابنك السخونة أثرت على عظام رجله اليمين كلها، ودا هيسبب عجز في النمو، والموضوع محتاج منكم شوية صبر..

- يعني إيه يا دكتور ولا مؤاخذة أنا مش فاهم؟

- بص أنا هكتبلكم على فيتامينات تستمروا عليها، وفي أسرع وقت لازم تجيبهولي أركِّب له جهاز طبي هيساعد على مد الساق.

- طب والجهاز دا هيتكلف كام يا دكتور؟

- الجهاز تمنه بالتركيب مش أكتر من ٤٠٠ جنيه.

خرج "رمضان" و"منى" وهما يحملأن "آدم".. لم ينطقا ببنت شفه حتى وصلا منزلهما.. التفكير في تدبير الـ٤٠٠ جنيه استحوذ على عقليهما.

كان الخبر قد انتشر في أرجاء القرية الصغيرة.. جاءهم "عبد الرحيم" والد "منى" وجميع أهلها، وتجمَّع القوم في منزل رمضان الصغير.. استلف من بعضهم المبلغ المطلوب، وعاد في صباح اليوم التالي إلى المدينة.. ساعات قليلة وارتبط اسم "آدم بن رمضان" بهذا الجهاز الذي لازمه في قيامه ونومه.

سنوات تمر على هذا الوضع، وكلما تقدَّم في السن أكثر وأكثر تطلب ذلك استبدال الجهاز بجهاز أكبر يتناسب مع ساقه التي تنمو ببطء.. لم يكن يطيق ارتداءه.. وقدرة من حوله على إقناعه منعدمة.. (عارف يا آدم.. السخونة اللي أثرت على رجلك كان ممكن تأثر على مخك، وساعتها يا حبيبي

كنت هتبقى زي شاكر وصابر اللي بيجوا من بلد العامري اللي جمبنا.. شفت عاملين إزاي؟ يبقى نقول الحمد لله ولا لأ؟ وأديك شفت الدكتور قالك إنه بعد شوية هنشيلك الجهاز يا سيدي)

هذه كانت كلمات أمه، تصبِّره بها بعد أن اشتدَّ الخناق حول رقبته، بعدما وصلت معايرات أصدقائه له إلى أحلامه التي تحولت كوابيس.. بعدما أصبح يقضي جُلَّ نهاره مرتكنًا في منزلهم يخجل من الخروج وملاقاة الناس.

استمر الحال هكذا.. عاشت الأسرة على الاستدانة والسلف.. إلى أن حان الوقت وعُيِّن "رمضان" في الجمعية الزراعية ببلدتهم مهندسًا زراعيًا.. كانت هذه هي الفرحة الأولى لهم منذ سنوات.. تخلى بعدها عن العمل بالأجرة واستقر بجوار أسرته الصغيرة.

ومع دخول "آدم" المرحلة الإعدادية ونمو جسمه بشكل مطرد، كان عليهم أن يجروا له عملية جراحية من شأنها أن تصلح ما يمكن إصلاحه في تلك الساق المعاقة... وبالفعل نجحت العملية بعدما عانى بعدها لمدة شهر ونصف يرقد على سريره الخشبي في منزلهم المتواضع، ومن ثم جلسات علاج طبيعي تقوم بها والدته له.

لم تكن تلك الإعاقة التي عانى منها "آدم" ولا يزال، عامل ضعف أو انكسار في حياته غير الاجتماعية، فتفوق في دراسته.. وبعد أعوام خمسة أخرى؛ ومع بداية الدراسة في الترم الأول من المرحلة الثانية للثانوية العامة، كان "آدم" على موعد آخر لإجراء عملية جراحية أخرى، بسبب عجز ساقه وتوقف نموها عن نظيرتها.

في تلك الأثناء كان شقيقه "هيثم" الذي يكبره بثلاثة أعوام، قد تُوفي نتيجة أزمة صحية عانى منها، ولم يشفع معها علاج المستشفيات الحكومية.. فبعد سبعة عشر يومًا من مستشفى المركز إلى القصر العيني، سعيًا لإنهاء اجراءات الدخول والإقامة في المستشفى.. كان السرُّ الإلهي قد نفذ.

تجاوزت الأسرة أزمة الشقيق الأكبر؛ أو تناستها بترديد عبارات "ابتلاء من الله.. والحمد لله"... وأجرى "آدم" عمليته الجراحية الثانية، وقد تمَّت بنجاح.. ورغم معاناته سواء من الألم الذي يضرب ركبته ضربًا، أو تخلفه عن الذهاب للمدرسة.. نجح في الحصول على مجموع كبير في الثانوية العامة، ودخل الكلية التي كان ينشدها.. تفوق فيها وخاض في سوق العمل.. نجح وتقدم رويدًا رويدًا.

دائمًا ما سمع من والديه أن كل ما هو فيه الآن هو مكافأة ومنحة من عند الله؛ الذي أخذ منه في السابق ثم أعطاه في النهاية.. فهو الله العادل الذي لا يرضى لعبده العذاب أو الألم..!

إلا أن صاحبنا ورغم اتساع رزقه ونجاحه المتنامي لم يغب عن باله يومًا ما عانى فيه خلال حياته التي لم يمر منها بعد سوى أقل من ربع قرن.. فجلس على كرسي مكتبه في أحد أيام الجمعة وقد فتح شباك الغرفة ونظر إلى العشرات من المارة.. أغمض جفونه قليلا.. فتذكّر (الجهاز الطبي المربوط بحزام.. الدكتور عبد الخالق حافظ في شارع يسري راغب.. العيادات الخارجية بمستشفى قصر العيني.. غرفته في المستشفى التي تضم سبعة مرضى آخرين غيره.. منظر ساقه بالجبس المقوى وعبارات الذكرى التي كتبها له الأهل والأصدقاء.. معاناته من ألم الجراحة بعد زوال مفعول المخدر.. التمييز السلبي بينه وبين زملائه في المدرسة بسبب ساقه.. معاملته بطريقة مختلفة حتى في منزلهم.. وأحيانًا معايرة الأم له بسبب ضيقها من تصرفاته.. حرمانه من لعب الكرة مع زملاء الفصل في حصة الألعاب.. خجله من الإسراع في خطاه أو الجري حتى لا يضحك منه القوم....)

على حالته تلك.. إلى أن استفاق منها بعدما شعر بيد تربد على كتفه؛ "محمد" زميله يستعجله على النهوض لأداء صلاة الجمعة. استفاق بالفعل من عُقده التي ارتسمت بداخله كخيوط عنكبوت، ونهض إلى أن وصلا المسجد المجاور.. شيخ يرتدي ثياب بيضاء، لم يطلق اللحية بعد.. يبدأ خطبته بالصلاة والسلام على الرسول، ومن ثم يشرع في الحديث عن نعم الله الكثيرة التي منحها للإنسان، وكيف أن المصيبة التي تصيب العبد هي ابتلاء من الله سيجازيه خيرًا إما في الدنيا أو في الآخرة..!

حاول "آدم" تقبل الفكرة.. حاول أن يقنع نفسه بأن هذا ابتلاء من ربه وأنه عوَّضه خيرًا الآن.. وهو في طريقه الإيجابي للرضا بما قدره الله له.. والشكر على ما آل إليه حاله.. وتقبل وضعه وتعايشه معه.. قبل خروجه من المسجد.. على الباب وهو يرتدي حذاءه.. نظر فوجد طفلة لم تتجاوز الخمس سنوات.. في ثياب رثة.. ترتدي قبقابًا.. وتمد أيديها للقوم الذين خرجوا من صلاتهم.. اقترب منها، وسألها عن حالها ولماذا هي هكذا..

- أبويا مات، وأمي بتبيع مناديل عند الإشارة اللي في آخر الشارع.. واخواتى ثلاثة أصغر مني.

سيطرت عليه حالة من الصمت المكلوم.. غادر محيط المسجد بعدما منحها سعادة وقتية... وعندما وصل إلى مكتبه مرة أخرى، كان قد عاد إلى المربع صفر.

شريط فيديو

بعد يوم امتدَّ لثمانٍ وأربعين ساعة من التعب والإرهاق.. عاد إلى شقته القاطنة بالدور الخامس في أحد أبراج مدينة ٦ أكتوبر، وهي الشقة التي استأجرها مؤخرًا بسبب عمله في أحد المواقع الهندسية القريبة هناك.. في طريق عودته للمنزل اعتاد المهندس "حسن" المرور على "زكي دي في دي" الذي يبيع له شرائط أفلام البورنو..

بعد جدال معتاد على ثمن الشريط أخذه حسن وانطلق إلى شقته حيث مرَّ في مدخلها بـ"عبده البواب" الذي كان قد ارتكن هو وزوجته أمام تليفزيون توشيبا ١٤ بوصة، يُعرض على قناة روتانا سينما فيلم لـ"هاني رمزي".. مرَّ "حسن" دون أن يرمي السلام على البواب الذي بدوره لم ينتبه لدخوله.. أمام الأسانسير نصف ساعة يدخن سيجارة ملفوفة.. يستسلم بعدها لعدم استجابة الأسانسير ويصعد حتى الدور الخامس سيرًا على الأقدام المتهالكة من اللف في الموقع طوال النهار.

على كرسي خشبي وسط صالة فارغة تفترش أرضيتها سجادة بالية، وعند الركن زهرية بها ورود ذابلة فقدت أوراقها.. استلقى "حسن" بعدما وضع الشريط في جهاز الفيديو.. دقائق وبدأ الفيلم بظهور "جيانا ميتشل" وهي تستعرض مفاتنها قبيل بدء مباراة شديدة السخونة على الحلبة.. إثارة تتطلب زجاجة بيرة وسيجارة ملفوفة جديدة، كان "حسن" قد جهَّزها بالفعل.

أثناء لحظات الانتظار والتسخين؛ وقبل إحراز الهدف الأول في مباراة من المفترض أن تكون عامرة بالأهداف، أتت الرياح بما لا تشتهي السفن.. الكهربا قطعت!.. حالة سباب وشتائم على النور والكهرباء والحكومة والرئيس والبلد.. إحساس بالضيق لا تقتله زجاجة البيرة.. في حالته غير المستقرة تلك اضطربت أركان الشقة.. رياح شديدة تقذف بالنوافذ.. الستائر تتطاير يمينًا ويسارًا، صاحبنا ارتعدت قدماه وأسرع خلف كرسيه الخشبي للاختباء من شبح قادم وسط الظلام الدامس.. لا يدري ماذا يفعل.. تذكر هاتفه المحمول، أخرجه من جيبه بأيدي مرتعشة.. يا لسوء الحظ، فالهاتف يلفظ أنفاسه الأخيرة ويحتاج إلى شاحن يمنحه قُبلة الحياة، ألقى به "حسن" وانتظر مصيره المحتوم.. تدور في رأسه خيالات "هل هذا عقاب الرب؟.. ولكنني ماذا فعلت لكل هذا؟.. إن ما أفعله يفعله كثيرون غيري.

في تفكيره المختلط بشوائب العقل الباطن، ظهر في الشقة نور أبيض كثيف لم يستطع معه أن يفتح عينيه.. فقط شعر بأيدي ملساء تحتضنه من تحت إبطيه وتوقفه.. يفتح عينه وقتها ليجد سيدة في أواخر العشرينيات فائقة الجمال ترتدي فستانًا أبيض وتضع روج شفاه أحمر.. بعد حالة من الذهول والدهشة والمفاجأة قال لها:

- مش انتى اللي في الفيلم قبل ما النور.....؟

قاطعته بخلعها ثوبها الأبيض الناصع، وارتمت في حضنه تقبِّله بقوة.. دقائق وتخلى عن نظرية "اللوح الخشبي" التي وضع نفسه في إطارها، وبدأ تجاوبًا معها هو الأول له في حياته القصيرة تلك..

مرَّت الدقائق والساعات.. استيقظ بعدها "حسن" ليجد نفسه كما هو دون أن يتغير شيء؛ بملابس العمل منذ ليلة أمس، مرتكن على الكرسي الخشبي وأمامه جهاز التليفزيون وقد ظهرت كلمة " The End".. بسرعة إلى حمام شقته.. أكثر من ساعة تحت الماء محاولاً تذكر ما حدث.. لكن دون فائدة.

خرج بعدها وارتدى ثيابًا جديدة، وحمل حقيبته متوجهًا إلى العمل... أمام عمارته السكنية وهو ينتظر التاكسي الأبيض المكيف، ظهر له عبده البواب:

- صباح الخير يا باشمهندس.

نظر إليه حسن نظرة طويلة قبل أن يتوجه إليه متسائلاً:

- قوللي يا عم عبده هو فيه إيه النور كان قاطع طول الليل امبارح؟

- قاطع إيه يا سعادة البيه.. النور ما قطعشي خالص وقاعد أنا والولية طول الليل قدام روتانا سينما "مش هتقدر تغمض عينيك" هيييييييه.

- بجدية: انت متأكد إن النور مكنشي قاطع خالص؟.

- يووه بقى مانا قلتلك يا بيه.. يمكن إنت الفيوز عندك فيه مشكلة.. اديني المفتاح وأنا هبعت أجيب الواد سيد الكهربائي يشوفهولك.

أعطاه حسن المفاتيح وذهب إلى عمله.. تناول أكثر من عشرة فناجين قهوة.. ورغم ذلك لم يستطع التركيز، ولا يغيب عن باله ما حدث ليلة أمس.. هكذا، إلى أن دعاه ماهر؛ زميله في العملح إلى العشاء الليلة في مطعم "تبولة" المتاخم للسفارة الأمريكية بجاردن سيتي.. وافق حسن وانطلقا.. بعدما أنهيا عشاءهما استقل الميكروباص من ميدان عبد المنعم رياض عائدًا إلى منزله.

على البوابة، وجد "عبده" كعادته أمام التليفزيون التوشيبا وزوجته بجواره، اقترب منه ليستفسر عن الكهربائي والفيوز:

- مساء الخير يا عبده.. يا ترى الكهربائي لقى العطل فين؟

- مساء النور يا باشمهنس، والله الواد سيد شاف الفيوز و"شيّك" على الأسلاك لقى كله تمام ومفيش أيتها حاجة من اللي حضرتك قلت عليها.

دون أن يظهر له حالة الدهشة التي ارتسمت بتلقائية على وجهه قال:

- طب هات المفاتيح وشكرًا ليك.

دافع حب الاستطلاع يسيطر عليه، يريد أن يعرف ما حدث ليلة أمس كان حقيقة أم حلم من أحلامه المتقطعة.. اتجه إلى شريط الفيديو ووضعه مرة أخرى في الجهاز، وذلك بعد أن أغلق نوافذ الشقة جميعها بقوة.. في انتظاره إنهاء "جيانا" عرضها الخاص ودخولها حلبة المصارعة.. انقطع النور مرة ثانية، واهتزت أركان الشقة نتيجة رياح عاتية فتحت النوافذ المغلقة بإحكام.. وظهرت له هذه السيدة بفستانها الأبيض مرة أخرى؛ مثلما حدث ليلة أمس..

- إنتي مين؟

-.......

- عايزة مني إيه، وإشمعنا أنا اللي بتجيلي ؟

-......

- طب ليه بتعملي كل دا تقطعى النور وتفتحي الشبابيك ؟.. هو إنتي عايشة في الشريط؟

-............

على حالتها الصامتة وكأن لسانها يأبى أن يقوم بمهمة أخرى غير التقبيل.. التهمت شفتي حسن الذي خرَّ صريعًا لتنهداتها وملمس جسدها الأملس الذي رُسِم بعبقرية في لوحة هي الأجمل.. لساعات هكذا قبلات وآهات وتقلبات على سجادة الصالة البالية إلى أن أنهت مهمتها وغادرت.. واستيقظ صاحبنا كيوم أمس بعدما أدرك أن لشريط الفيديو سرًّا جنسيًا خارقًا!

ارتدى بدلته الفورمال وتناول حقيبته وانطلق ليبدأ يوم عمل جديد، بدأه بنشوة عريس لم يعرف طعمًا للجنس قبل ليلة زفافه.. حالة من التفاؤل والمرح، اندهش لها الزملاء في العمل، حتى أن ماهر سأله عما به فأجاب:

- ولا حاجة يا ماهر عادي يعني.. ما تاخدش في بالك ☺

أصبح كل همّ "حسن" في الحياة الضيقة أن يذهب إلى عمله ويعود سريعًا للقاء سيدة الشريط.. استمر الحال هكذا لأيام كثيرة متوالية، إلى أن تغير كل هذا في يوم جمعة، خرج فيه "حسن" مع صديقه "ماهر" في جولة بدريم بارك، فهو كثيرًا ما رغب في تجربة مشاهدة الأفلام بتقنية الـ"3D IMAX".. أنهى يومه هذا وهو في قمة السعادة، وتوجه إلى شقته بعدما أحسَّ برغبة عارمة في لقاء حميمي يجمعه بتلك السيدة..

بالفعل عاد إلى منزله، أضاء مفتاح الكهرباء وجلس على كرسيه الخشبي في انتظار ظهور "جيانا"، وهو ما حدث فعلاً، ظهرت "جيانا" وانتهت فقرة الاستعراض الأولى في الفيلم ولم يحدث شيء.. بدأت المباراة الساخنة ما بين السرير والكنبة المتاخمة له.. ولم يحدث شيء أيضًا.. لا انقطع التيار الكهربي ولا اشتدت الرياح كالعادة.. على هذا الحال إلى أن انتهى الفيلم تمامًا ولم يحدث ما انتظره "حسن" واعتاد عليه طوال الليالي الماضية..

سيطرت عليه حالة من الإحباط واليأس.. إحباط مدفوع بتفكير قد يودي بصاحبه إلى مستشفى العباسية.. إحساس تطلب مكوثه في المنزل لأيام.. لا يجيب فيها على الهاتف ولم تذق معدته طعمًا للزاد..

وهو هائم على وجهه هكذا.. ظهرت له مرة أخرى.. فُوجئ ونهض بسرعة نحوها:

- إيه دا انتى جيتي ازاي من غير ما أشغل الشريط؟

- عادى مهو أنا مش محتاجة شريط عشان أجي.

- بجد ؟! أومال إيه كل اللي كان بيحصل الفترة اللي فاتت.. أنا كنت بقابلك لما بشغل الشريط و....

- أنا موجودة معاك طول الوقت وعمرى ما بعدت حتى من قبل الشريط، لكن في الأيام اللي فاتت كان لازم أظهر لأني تعبت.

- تعبتي إزاي ؟.. ومن إيه ؟

- فكر شوية وإنت تعرف.. أنا معاك دايمًا.. أنا جواك.. الشريط كان دافع لخروجي مش أكتر.. الشريط كان مجرد سبب.

- أنا مش فاهم ودماغي هتنفجر.

- أنا مجرد تعبير.. إحساس.. حالة.. أنا مش زي ما انت فاكرني..

- طيب خلاص خليكي معايا، نرجع زي ما كنا الأيام اللي فاتت.

- انت مش فاهم بردو، أنا موجودة معاك وهلازمك في الضيق وفي السعة.. لكن اللي حصل الفترة اللي فاتت كان ظرف طارئ وقتي.. انت لازم تراجع نفسك وتنهي الكآبة دي.

فجأة.. انقطع الحديث ورحلت صديقتنا دون أن يصل المهندس "حسن" لبر تساؤلاته.. أيام قليلة وعاد إلى عمله.. بدا كأنه إنسان آخر جديد مليء بالطموح الحذر، ومفعم بالحيوية غير المطلقة.

مرَّت حياته هكذا، فتزوج وأنجب بعدما عاش قصة حب قصيرة مع "سارة".. وفي أثناء حياته الهادئة السعيدة تلك.. عادت له سيدة الشريط للظهور مرة أخرى بثوب جديد مفعم هو الآخر بالحيوية والطموح.

في شقة شارع نوبار العباءة

تعاني سوء معاملة غير مفهوم من والدها الذي تجاوز الستين من العمر.. هي تعيش تجربة حب مرَّ عليها عام مع شاب وسيم يدعى "إسلام"، حاصل على بكالوريوس التجارة شعبة التجارة الخارجية، ويعمل في ميناء بورسعيد وعلى إحدى السفن في وظيفة تشبه "الباشكاتب" وهي الوظيفة التي لا يحصل منها سوى على ٧٠٠ جنيهًا لا تكفي حاجته.

في مدينة الإسماعيلية نشأت تلك الآنسة "داليا" وترعرعت وتخرجت من كلية التجارة أيضًا، وبدأت عملاً شاقًا مع أحد مكاتب الوكالات الإخبارية.. ورغم تيسر حالة عائلتها ماديًا؛ إلا أنها كانت ترغب بشدة في العمل والاعتماد على نفسها، وقد كان بالفعل، لكن ليس كما تمنت، فـ٣٠٠ جنيهًا فقط شهريا كان راتبها نظير عمل مدته ١٤ ساعة يوميًا.

وجود "داليا" في بيئة لا تنتمي إليها سوى بجسدها، ولَّد لديها أفكارًا عدة وصفها البعض بـ"الغريبة" وأحيانًا "المجنونة"، حتى أن البعض ذهب إلى أن تلك الفتاة "ملحدة".. لقد كانت أفكارها مرتبطة بشكل كبير بالعدالة الغائبة بين البشر، وكيف أن إله الخلق هذا جعل الناس طبقات بعضهم فوق بعض.. كانت دائمة التساؤل عن سبب وجود مرضى وعجائز.. فقراء وشحاذين.. أطفال شوارع ومتسولين.. بلطجية وجهلاء.. متحرشين مثلهم مثل مجموعة من الكلاب التي تلهث وراء أنثى في وقت التزاوج من أجل شعور بانتعاش ونشوة وقتية لا يعرفون غيرها لأنهم حيوانات.

دائمة التساؤل فيما وراء هذا الظاهر للجميع، ما يخفيه العالم الآخر ولا تعرف عنه سوى بعض الأساطير التي يبدو معظمها خياليًا لا يقبله العقل الذي منحه "الإله" لها.. عقلها الذي لا يهدأ حتى أثناء نومه المتقطع، يواصل التفكير في المكتوب وادعاءات الثواب والعقاب رغم أن أنفاسها محسوبة ومكتوبة في هذا اللوح.

أفكار تراكمت فوق بعضها مثل الطمي الذي حملته مياه النيل قديمًا حتى كوَّن تلك الأرض الزراعية التي تنعم بها مصر.. لكن هذه الأفكار لا تنعم بها "داليا" بل تؤرقها في حياتها المكتئبة الحزينة.. حياتها التي رأت فيها والدها وهو يعتدي على والدتها أمام عينيها، وتلك الأم التي تجفف دموعها في محاولة لبدء صفحة معروف آخر ما سيكتب فيها، لكن قاعدة (المكتوب على الجبين) سيطرت على عقل تلك الأم البائسة فغضت بصرها عن النهاية المعتادة والمتكررة لفيلمها القصير الذي بدأ الجمهور في النفور منه بسبب ملله ورتابته.

معقدة بعض الشيء صاحبتنا، إلا أن شيئًا واحدًا جمَّل تلك الحياة.. "إسلام" يكبرها بعام واحد، عاش تجربة عاطفية مع ابنة عمه من قبل، وهي تجربة لم تكلل بالنجاح لأسباب لم يفصح عنها لـ"داليا"؛ ليس خوفًا من انهيار علاقته الجديدة بسبب نوة شتوية مثل التي تهدم أركان الأبراج الملكية على كورنيش الاسكندرية، ولكن خشية أن يترك هذا الاعتراف أثرًا سلبيًا لا تمحوه فيضانات حبه الصادق لها.

مثَّل إسلام بالنسبة لداليا العامل الجوهري في استمرار حياتها المليئة بالمطبات الاصطناعية، إلا أن هذا العامل لم يكن لينجح بمفرده لولا وجود عامل آخر ثانوي تمثل في هذا الصديق الذي اعتبرته هي طفلها وشقيقها في الوقت ذاته..

"محمد" شاب في أوائل العشرينيات يصغر "داليا" بعامين يعمل صحفيًا ومعدًا للبرامج في إحدى القنوات الفضائية كما أنه أحد القلائل المهتمين بمجال حقوق الإنسان في مصر.. لم يكن هذا الصديق من سكان القاهرة المتأصلين لكنه جاء من محافظة أسيوط في صعيد مصر بحثًا عن حلم الشهرة والمجد والنجاح والإحساس بالذات.

توافقه في الأفكار إلى حد كبير وصل إلى درجة المضاهاة بينه وبينها جعل التعارف أسرع من المعتاد بين شاب وفتاة.. كان اللقاء الأول بينهما في فندق "ماريوت" بالزمالك على هامش انعقاد ورشة تدريبية في مجال رصد وتوثيق الانتهاكات الواقعة بحق الصحفيين والإعلاميين.. لم يكن صاحبنا يتحدث كثيرًا ومشاركاته في الورشة كانت نادرة إلا في الأوقات الملحة التي تطغى فيها نفسه الغرورة للحديث واستعراض عضلات اللباقة والفصاحة.. أما "داليا" فكانت كثيرة الكلام والسؤال، ليس بهدف "الشو الإعلامي" الذي تحظى به لميس في "هنا العاصمة" ولكن رغبة منها في المعرفة والاستكشاف.

لم يتحدثا سويًا إلا في اليوم التالي من الورشة أثناء تناولهم الـ"coffee break" وكان حديثًا مقتضبًا بدأه "محمد" بمطالبته لها بأن تلتزم الدور أثناء تناول المشروبات، وهو الطلب الذي قابلته هي بالموافقة دون امتعاض أو اعتراض.

استمر الجفاء المبرر نتيجة العادات والتقاليد فيما بينهما حتى اليوم الأخير للورشة، حيث تم تقسيم المشاركين في مجموعات لكل مجموعة منسق، فشاءت الأقدار أن تكون "داليا" في المجموعة التي يتولى "محمد" تنسيقها.. أنهى النقاش وآخر ترتيبات العمل معهم في انتظار موافاته بكل جديد عبر البريد الالكتروني والهاتف الجوال.

عادت "داليا" إلى منزلها وحياتها التي تشبه حالة شاب في ليلة زفاف محبوبته لشخص آخر، وبدأت رويدًا رويدًا حالة التعارف العميق فيما بينهما.. هذا التعارف الذي انتهى لأن أصبحت هي أعز صديقة له؛ بل أكثر من صديقة؛ وهو كذلك بالنسبة لها.

على هذا الحال إلى أن نفضت ثياب الحواجز للانطلاق نحو القاهرة مرة أخرى، لكن تلك المرة بهدف وغاية العمل الحقيقي كصحفية، خاصة وأن هذا التوقيت يأتي تزامنًا مع امتحانات نصف العام في مركز الإعلام المفتوح الذي تنتمي إليه.

في شارع نوبار بوسط القاهرة.. أمتار قليلة من محطة مترو محمد نجيب، برج من زمن الخديوي إسماعيل، يمتلكه مجموعة من المُلاك الذين يعانون الشيخوخة وقد ارتكنوا في إحدى الشقق بالدور السابع.. سوادٌ يخيم على تلك البناية، أثناء خروج جنازة السيدة "رؤيات" التي كانت تعمل في شبابها سجَّانة وجار عليها الزمن فأصيبت بأمراض عدة والتزمت الفراش إلى أن توفاها الله.

في مساء اليوم ذاته.. أغلقت مدام "مايسة" ابنة المرحومة شقة والدتها وعادت إلى منزلها في المعادي بعد أن أعطت "سناء" الشغالة باقي حسابها.. مرَّ على هذا الحدث سبعة أشهر قبل أن تدور الدائرة حول هذه الشقة مرة أخرى..

حزمت "داليا" حقائبها وحضرت إلى القاهرة حيث توجهت إلى منزل صديقة لها بمصر الجديدة، ظلَّت هناك أيامًا وذلك أثناء تدربها في جريدة "الدستور"، التي لم يعجبها الحال فيها فتركتها بعد أقل من ثلاثة أيام.. وأثناء حديثها في هذا الأمر أمام "محمد" أخبرها أن هناك راديو شبابي يعمل فيه وسيكون فرصة مناسبة لها كي تتعلم وتمارس بشكل أكبر حتى تصبح مؤهلة للعمل بشكل محترف، وقد كان..

اندمجت سريعًا في العمل بالراديو، وساعدها على ذلك كتلة الحماس التي تمتعت بها، فواظبت على العمل، وأصبح برنامجها اليومي الحضور إلى الراديو.. متابعة السوشيال ميديا، أو النزول في إحدى التغطيات الميدانية.

الشجار في المترو كان ماركة مسجلة لديها، فلا يمر يومٌ إلا وتتشاجر مع أحد الذكور الذي يرغب في استقلال عربة السيدات.. حالة سباب وشتائم لا تقوى هي على الرد عليها، بل لم يقتصر الأمر على ذلك فتطور إلى اعتداء بعض السيدات أنفسهن عليها لموقفها المدافع عنهن هذا!!

هذه الأحداث اليومية، بجانب تطلع الغالبية لها على أنها فقط رمز جنسي لا شيء أكثر، زاد من حقدها ونقمتها على الحياة وهذا المجتمع الذكوري، لكنها تحملت آملة في الخلاص.

وكما هو شائع "يا بخت من زار وخفف".. حزمت صاحبتنا حقائبها مرة أخرى وغادرت شقة صديقتها إلى منزل عمتها في جسر السويس.. أثناء ذلك ظلت تبحث مرارًا وتكرارًا عن شقة بالإيجار من أجل الاستقرار بها، فنشرت إعلانا في "الوسيط" ولم توفق، حتى أن بعض الأشخاص حاولوا التحرش بها هي ووالدتها أثناء معاينتهما لشقة في بولاق.

انتظرت على هذا الحال من اليأس والإحباط إلى أن لعبت الصدفة دورها، فأثناء أداء "داليا" لامتحاناتها تحدثت لصديقتها "أمنية" عن حالها وأنها تبحث عن شقة من أجل الاستقرار في القاهرة والعمل.. كان معهما في تلك الجلسة "عمرو" صاحب "أمنية" والذي يعمل "شيف" في أحد المطاعم الشهيرة بآخر فيصل، بدوره أخبرهما أن لديه زميل في المطعم يمتلك شقة في شارع نوبار بجوار محطة مترو محمد نجيب وأنه على استعداد لتأجيرها.. تفاءلت "داليا" وبالفعل تحدثت مع هذا الشخص واتفقا على أن يتقابلا مساء الاثنين لمعاينتها..

على مقهى "فريسكا" في أول الطالبية بفيصل، جلس "إبراهيم" مع "سناء" الشغالة التي كانت تعمل لدى "رؤيات" في شقة شارع نوبار ودار بينهما حديث قصير..

- إزيك يا بت يا "سناء" عايز مفتاح الشقة..

- ليه يا إبراهيم إنت جبت لها زبون؟..

- أه وزبون سقع كمان بنت كده من المتريشين عليها تار بايت عند واحدة صاحبتها هنطلع من وراها بقرشين حلوين.

- طيب خد، بس بقولك إيه الفلوس النص بالنص.

- طبعًا طبعًا وأنا أقدر أنساك يا موز.

- بس خد بالك إنت عارف الشقة مقفولة من ساعة وفاة المرحومة ومحدش فتحها، دا حتى مدام مايسة ماتعرفش إن معايا مفتاح..

- متقلقيش..

- وكمان هتقول إيه للبواب أو لو قابلك حد من ملاك العمارة ؟

- أنا هاتصرف، هاتي بس المفتاح.

يأخذ "إبراهيم" المفتاح وينصرف عائدًا إلى عمله، في انتظار مساء الاثنين كي يقابل "داليا" من أجل الاتفاق على الإيجار والمقدم والتأمين وغيره.

• • •

- إنتو هتعملوا معاها إيه بالظبط؟

- مفيش.. دي حاجة بسيطة جدًا زي شكة الدبوس.

- بس أوعى البنت تروح فيها منكم.

- بقولك إيه مش إنتي اللي عايزة كده.. مش إنتي اللي عايزاها تبقى زيك؟

- آه طبعًا لازم تبقى زيي.. إشمعنا أنا أتجوز واحد مشلول وأمه تهتك عرضي وأطَّلق بعدها وحياتي تتدمر وحياتها هي جميلة ومستريحة.. لازم هي كمان تبقى كده.

- بس أنا مستغرب والله مش دي صاحبتك بردو؟

- إنت ملكش دعوة نفذ وخلاص، مش قبضتك..؟ تعمل اللي أنا عايزاه.

بهذا الوجه المليء بأحقاد سنوات الضياع أنهت "أمنية" حديثها مع "عمرو" وعادت إلى منزلها وهي ترسم بخيالها مصير محتوم أسود لـ"داليا" في شقة نوبار.

أمام "كنتاكي" بميدان التحرير ينتظر "محمد" قدوم "داليا" التي أخبرته في التليفون بأن يأتي معها أثناء معاينتها الشقة الجديدة حتى لا تذهب بمفردها.. شعور بالقلق الطبيعي يتملكها.. دقائق ويتقابلا سويًا.. أتت ومعها "أمنية" التي تعرَّف عليها ونظرته تمتلئ ريبة وشك.. ساروا على الأقدام بشارع طلعت حرب ومنه إلى شارع صبري أبو علم حتى وصلا ميدان محمد فريد.. كانت الساعة الثامنة إلا ربع مساءً، جلسوا على مقهى بجوار المترو تناولوا الشاي والكحك في انتظار "إبراهيم" و"عمرو".. دقائق ووصل الاثنان، وذهبوا جميعًا إلى البناية التي بها الشقة...

أمام العمارة أخبرهم إبراهيم بأن ينتظروا في الخارج حتى يأتي بالمفتاح من البواب، انتظروا بالفعل إلى أن أذن لهم.. صعدوا سبعة طوابق على السلم بحجة أن الأسانسير معطل.. وفي النهاية عاينت "داليا" الشقة وأُعجبت بها واتفقت على الإيجار الشهري، ثم غادرت هي و"محمد" على أن تأتي غدًا لاستلامها.

مرَّ اليوم.. "داليا" تجَّهز ملابسها وحقائبها للانتقال إلى شقتها الجديدة بعد أن ودَّعت عمتها المسافرة إلى كندا.. "أمنية" تسيطر عليها حالة من السخط لفشل ما كانت تسعى إليه في تلك الليلة بسبب "محمد".. "إبراهيم" و"عمرو" يحاولان إقناعها أن "الجايات أكتر".. "محمد" غير قادر على إخراج نفسه من دائرة الشك في "أمنية" وأعوانها، والقلق على "داليا".

في صباح اليوم التالي انتقلت "داليا" بالفعل إلى الشقة، ورافقتها "أمنية" التي ادَّعت بأن والدتها طردتها من المنزل.. لم تمانع "داليا" بهذا؛ بل رحبت، وبدأت رويدًا رويدًا في الاستقرار.

وبعد عدة أيام..

- أنا النهاردة راجعة عند ماما، أصلها اتصلت بي كتير وعايزاني أرجع.

- طيب أوك يا بنتي، ولو حسيتي إنك مش مستريحة تعالي، أديكي شايفة أنا قاعدة في الشقة لوحدي.

- أوك.

حديث مصطنع ورواية ألَّفتها "أمنية" حتى لا تتواجد في الشقة تلك الليلة، فخرجت بالفعل، وعلى نفس المقهى بميدان محمد فريد قابلت "عمرو" و"إبراهيم" فأبلغتهما بأن "داليا" بمفردها الآن في الشقة وأن عليهما أن ينفذا طلبها الليلة، فناولتهما المفتاح ورحلت إلى منزل والدتها.

في تمام الساعة الثانية صباحًا.. البوَّاب - الذي ظنَّ طوال الأيام الماضية أن "داليا" موظفة جديدة تعمل في شركة السياحة القاطنة بالعمارة - كان قد استلقى في نوم عميق بغرفته الصغيرة في الدور الأرضي، حتى أن الشارع بدأ يخلوا من المارة.. وكانت "داليا" قد أنهت كلامها مع "محمد" عبر الفيس بوك وخلدت إلى النوم.... دخل "إبراهيم" و"عمرو" إلى العمارة وصعدا حتى الدور الأخير؛ حيث شقة "مدام مايسة" التي استأجرتها "داليا".. بهدوء شديد ودون أن يصدرا أي صوت؛ دخلا إلى الشقة، سارا في الظلام دون أن يضيئا نور الصالة حتى لا تعرف "داليا" بوجودهما.. وصلا ببطء من غرفة نومها التي وصفتها لهما "أمنية"،

وبالفعل اقتربا منها أكثر وهما يرتديان قناعين أخفيا خلفهما هوياتهما.. استيقظت هي صارخة.. أمسك أحدهما بيديها وضربها الآخر فوق رأسها.. لم تتأثر هي إلا قليلا.. قربا منها مخدر Zolpimist Oral Spray كانا قد اشترياه من إحدى الصيدليات في فيصل.. دقائق معدودة وهما يكتمان فمها حتى راحت في حالة إغماء.. مزّقا بيجامة نومها.. انقضا عليها كالكلاب المسعورة التي تنهش جسد الضحية.. قضيا على براءتها العذرية، فسالت قطرات الدماء بشكل متواصل على ملاءة سريرها الأبيض... رحلا مسرعين بعدما انتهيا منها.

استيقظت هي بعد نحو ثلاث ساعات.. تنظر حولها بدهشة ومفاجأة كادت تفقدها النطق.. الدموع تسيل من عينيها كشلال مياه.. وارت عورتها بالملاءة بعد أن ارتكنت في أحد أركان الغرفة، تحاول تذكر ما حدث.. لكن هيهات فعقلها منهك وذاكرتها مشتتة.. لا تمتلك سوى الصراخ؛ صراخ متوالي على مدار الساعة تفيق منه على غيبوبة تتمنى من ربها أن تكون مجرد كابوس عابر ستستعيذ به من الشيطان بعد أن تستيقظ منه.. ما حدث حقيقة وليس كابوسًا.. لا تملك حيلة سوى انتظار الخلاص؛ الخلاص الذي لم يحن موعده بعد.. لكن لِمَ؟.. لابد لها أن تحدد هي وقت الخلاص.. هكذا حدَّثت نفسها... فهي الضحية وليست الجاني.. الخلاص من أفكار تؤرق حياتها؛ من ذنب لم ترتكبه؛ من عارٍ مفتعل سيظل وصمة على جبينها؛ من مجتمع سيحّملها مسؤولية اغتيال شرفها؛ من حبيبٍ قد لا يتفهم موقفها؛ من صديق تخشى عليه أن يعانى معاناتها.

ذبحت "داليا" شريان يدها.. تنظر إلى روحها التي تخرج ببطء.. تتمنى أن تنتهي تلك العملية سريعًا.. ترغب في الرحيل؛ رحيل إلى المجهول الغامض الذي لا تعرف عنه شيء سوى أساطير وأحاديث خرافية.. هذا المجهول الذي بالتأكيد لن تخسر فيه أكثر مما خسرت في حياتها الفانية.

بطاقة شخصية

تخرَّج من معهد الخدمة الاجتماعية بسوهاج قبل أعوامٍ قليلة، ونظرًا لما تعانيه البلاد من بطالة متوحشة، اتجه "مصطفى" للبحث عن حرفة وصنعة تكون له سندًا في هذه الدنيا، بعدما آمن أن هذه البلد "مش بتاعت شهادات صحيح".

"جمال" ٢٨ سنة، الكهربائي الوحيد الذي تعرفه قرية "مصطفى" الفقيرة، لديه حقيبة من البلاستيك المقوى تحمل عدة الشغل، ولديه بدلة من القماش يطلق عليها "العفريتة" كان يرتديها باستمرار حتى ظنَّ الناس أنه لا يملك غيرها وأطلقوا عليه اسم "جمال عفريتة"، وبالرغم من السمعة السيئة التي تمتع بها صاحبنا هذا بسبب اعتياده على الُسكر والعربدة يوميًا في "غرزة سامية الرقاصة"، لم يجد مصطفى بدًا من الذهاب إليه من أجل أن يتعلم منه فن هندسة الكهرباء، حتى يجد رخصة من خلالها يسافر إلى السعودية، فقد سمع في إحدى جلسات السمر عن "قدري" ابن أبو حسين، والذي كان قد سافر قبل أعوام إلى السعودية تبدل حاله بعدها من الفقر والشقاء إلى الرغد والسعادة.

وعلى المقهى...

- سيد : يااااااه يا واد يا مصطفى لو تعرف تجيبلك فيزا وتسافر السعودية، أديك شايف "قدري" اللي أمه كانت غسالة.. بقى دلوقتي بيلعب بالفلوس لعب.

- مصطفى.. ينظر إلى السماء وهو يرتشف آخر ما تبقى من كوب الشاي : يا سيدي اللي عايزه ربنا هيكون.. يللا أفوتكم بعافية.

خرج مصطفى عائدًا إلى منزله، وفي الطريق صادفه "جمال" وهو عائد مترنح من "غرزة سامية".. اقترب منه وساعده على النهوض بعدما سقط على الأرض نتيجة عاصفة شديدة، اعتاد عليها الجميع خاصة في ظل هذه الأيام من شهر أمشير.

- مصطفى : أسطى جمال، أنا مصطفى، إنت مش عارفني ؟

- جمال : مصطفى مين يابني عدي علينا بكرا..

قالها وراح في الغناء (هات الإزازة واقعد لاعبني.. المزة طازة والحال عاجبني..).

تركه "مصطفى" وعاد إلى منزله على أن يأتيه غدًا لعله يجده في حالة أفضل.. وبالفعل قبيل صلاة الظهر ذهب إليه وتحدث معه، حيث قوبل بموافقة على امتعاض من "جمال"... أصبح "مصطفى" في الأيام المتتالية حاملاً ومساعدًا لـ"جمال".. شيئًا فشيئا إلى أن تعلم هندسة الكهرباء وأتقنها بسبب نبوغه وذكائه.

في أعقاب ذلك، وبعد أيام جمع فيها القرش على القرش والجنيه على الجنيه، أكمل مصطفى ثمن الفيزا، لكن الفيزا كانت بمهنة "حدَّاد مسلح"! فهذه هي المهنة الوحيدة التي يملك مصطفى ثمن فيزتها.. وافق واستخرج أوراقه وجواز سفره، وسافر إلى السعودية.. وهناك اتسع رزقه وعمل كهربائيًا وظل عدة سنوات، عاد بعدها إلى مصر وكان قد شيَّد منزلاً فخمًا وتزوج.

في إجازته السنوية.. ذكَّرته زوجته التي جلست بجواره في بلكونة منزلهما وعلى حجرها طبق "البرتقال السكري" أنه بحاجة إلى أن يجدد جواز السفر الخاص به، فقال لها: (عادي مفيهاش مشكلة أقوم الصبح أروح مكتب الجوازات أجدده وأدفع الـ١٣٥ جنيه وكله يبقى تمام).. لكن يبدو أن مصطفى في تفكيره وتوقعه هذا لاستخراج الجواز كمن يعيش حلم يقظة..

ففي صباح اليوم التالي، بعدما تناول كوباية الشاي بلبن ومعها "الفايش والكحك" اللذان كانت قد جهزتهما له "لمياء".. اتجه إلى مكتب الجوازات الذي يبعد عن محل سكنه عدة كيلومترات تتطلب "مواصلتين"، وبعدما وصل.. طابور طويل يضم عشرات المواطنين الكادحين الذين يأملون في تأشيرة عليها خاتم النسر تتيح لهم فرصة مغادرة هذه البلد والانطلاق نحو الثراء المأمول.. انتظر صاحبنا في الطابور حتى قارب النهار على الانتصاف، وعندما وصل إلى "الصول" المسؤول..

- وريني يا بني جواز السفر بتاعك وهاتلي البطاقة.

- اتفضل يا أفندم.. أنا عايز أجدد الجواز، أنا أصلاً كنت في السعودية و.. و.....

- قاطعه الصول: خلاص يا حبيبي إنت هتصاحبني.. عمومًا خد يا خفيف مش هينفع نجدد لك الجواز، لازم الأول تجدد البطاقة، لأن بطاقتك دي مكتوب فيها "حاصل على معهد خدمة اجتماعية" وإنت هنا في الجواز هتسافر على إنك حداد مسلح.. روح جدد البطاقة من السجل المدني وتعالى.

- إزاي يا باشا إذا كانت المهنة في الجواز حداد مسلح يبقى إيه لازمته.

- بقولك إيه أنا قلت اللي عندي.. عندك شريف بيه ضابط المكتب روح قول له.

يذهب مصطفى إلى "شريف بيه" الذي بدوره استند على كرسي من الاسفنج ومال إلى الخلف ورجلاه على المكتب، وفي يده ريموت التليفزيون يشاهد عليه مظاهرات اندلعت في ميدان التحرير : (عيال ولاد..... صحيح، شوية العيال السيس دول عايزين يسقطوا البلد ويمشوها على مزاجهم).. فجأة ينتبه لـ"مصطفى" الذي وقف خجولاً مبتسمًا ابتسامة لعلها تكون عاملاً إيجابيًا في إقناع الضابط بإمكانية تسهيل إجراءات تجديد الجواز..

- نعم وانت مين انت كمان..؟

- أنا مصطفى يا سعادة الباشا كنت جاي أجدد الجواز بس الصول بيقولي لازم أغير المهنة في البطاقة الأول، مع إن المهنة في الجواز مظبوطة و.......

- أنا مش ناقصك.. اللي بيقولك عليه اعمله وما توجعش دماغى.. يللا من هنا... إنت يازفت يا سيد، هاتلي قهوة سادة... متيللا يابني إنت لسه واقف.

يخرج مصطفى منكبًا على وجهه ولم يعد أمامه سوى الرضوخ لرغبات المجتمع البيروقراطي المتأصل.. فذهب إلى مقر السجل المدني من أجل تجديد البطاقة...

وفي السجل المدني أخبروه أن يذهب إلى مكتب الإنشاء والتعمير والأخشاب كي يأتي لهم بشهادة خبرة أنه حداد مسلح... فذهب بالفعل إلى مكتب الإنشاء والتعمير بمحافظته أسيوط.. طابور آخر أطول من سابقه ينتظر إلى أن يأتي دوره، وحين أتى أخبروه أن يذهب أولاً إلى القوى العاملة بالمحافظة... فذهب إلى القوى العاملة، والتى بدورها أرسلته إلى القوى العاملة بالمركز التابع له.. وهناك،،

موظفة تزن أكثر من مائتي رطل: (الموضوع بسيط، روح مكتب البريد عشان تبعت حوالتين لوزير القوى العاملة كل حوالة بـ٣٥ جنيه.. بس خد بالك ما ينفعش تبعت حوالة واحدة بـ٧٠ جنيه لازم يكونوا حوالتين.. أنا قلتلك أهو)... بعد أن دفع الحوالتين عاد مرة أخرى إلى نفس السيدة التي ارتكنت على كرسيها تواصل تقشير البطاطس..

- ها إيه تاني يا مدام.. أنا بعت الحوالتين خلاص والوصولات أهي..

- تروح دلوقتي تجيبلي الرقم التأميني من التأمينات والمعاشات..

- آه بس إيه دخل المعاشات بتغيير المهنة في البطاقة؟

- أرجوك اعمل اللي بقولك عليه.. دي قوانين ولوائح يا أفندي.. ولا انت فاكرها فوضى.

بعلامات اليأس والضيق التي ارتسمت على وجهه كلوحة فنية لفنان تشكيلي ليس فيها إلا خطوط وشخابيط.. اتجه مصطفى إلى مكتب التأمينات والمعاشات وحصل على الرقم التأميني الخاص به، أخبروه وقتها أن يذهب إلى مكتب الاختبارات في أسيوط... وهناك انتظر مع العشرات أمثاله، إلى أن حان دوره فوقّع له المهندس المسؤول على شهادة ، حصل فيها على درجة "ماهر" وهي أعلى درجة في مهنته، وأبلغوه بأن يذهب بعد ثلاثة أيام إلى مكتب القوى العاملة بالمحافظة للحصول على الشهادة... هذا كله وسط حالة من الذهول انتابت مصطفى الذي لم يجري أي اختبار لكي يحصل على هذه الدرجة!!

بعد ثلاثة أيام، أسرع مصطفى إلى مكتب القوى العاملة، كي يحصل على شهادة تفيد بأنه "حداد مسلح"؛ كما هو مذكور في جواز السفر، وهناك: (الشهادة جاهزة.. لازم تروح مجمع المصالح تختمها)!... ذهب إلى مجمع المصالح أعطوه كارنيه وختموا له الشهادة، وأرسلوه بها مرة أخرى إلى مكتب الإنشاء والتعمير والأخشاب... وهناك رأوا الشهادة وختموها مرة أخرى بعدما دفع عشرين جنيهًا، وأرسلوه بها إلى السجل المدني من أجل استخراج البطاقة... وفور تجديده البطاقة عاد إلى مكتب الجوازات فجددوا له الجواز.

وسط حالة هيستيرية تجمع بين الضحك والبكاء.. احتضن مصطفى جواز السفر والبطاقة الشخصية وخرج مسرعًا.

في المنزل بدأ تجهيز حقائبه، وحجز تذكرة الباخرة المتجهة يوم السبت المقبل إلى ميناء تبوك بالمملكة العربية السعودية..

مساء الأحد كان قد حطَّ الرحال في الأراضي المقدسة..

ساعات قليلة ويستقبل مكالمة هاتفية من الكفيل الخاص به:

- يا مصطفى، حمد الله على سلامتك.. جهز نفسك هتبدأ الشغل من الغد.

في صباح اليوم التالي.. يحمل مصطفى حقيبته البلاستيك التي تشبه حقيبة "جمال" ويتجه إلى موقع العمل كي يبدأ عمله As أكهربائي!!.

في دير سمعان الخرَّاز

كالعادة بمقر عمله، يواصل توجيه مرءوسيه، وهو يجلس على مكتب من الخشب وأمامه جهاز كومبيوتر شاشته LCD ، يأتيه صديقه "صموئيل"، الذي يدعوه للاحتفال معه هو وعدد من الأصدقاء المسلمين بأعياد الميلاد.. وبسبب ارتباطه بصديقه، وحرصه على ترسيخ مبدأ الوحدة الوطنية داخل هذا البلد الذي يعاني أزمات واحتقانات طائفية منذ بزوغ نجم شيوخ الوهابية، أنهى "مستر أحمد" عمله، وانطلق مع صموئيل وباقي الأصدقاء نحو دير "سمعان الخرَّاز" بالمقطم، وذلك بعد أن هندم نفسه أمام مرآة الحمام ووضع بيرفم "e-phoria" وغطَّى رأسه بـ"فرينش كاب" كان قد اشتراه من أحد المولات الشهيرة في وسط البلد.

في الطريق تبادل الجميع الضحكات والقلش والتهاني لصديقهم المسيحي، الذي سعد كثيرًا باحتفالهم معه اليوم، وهو العيد الأول الذي يحتفل فيه مع أصدقاء مسلمين.. دقائق ونزل الجميع من مترو "الملك الصالح" حيث استقلوا ميكروباص "Eltramco" ١٤ راكب إلى ميدان السيدة عائشة.. ومن هناك توجهت قافلة زوار الدير سيرًا على الأقدام نحو "سمعان الخرَّاز" حيث مرَّت من أمام قلعة صلاح الدين ومن بعدها منطقة في أول المقطم انتشرت فيها الروائح الكريهة، والكلاب الضالة.

كانت هي المرة الأولى التي يسيرون فيها من هذا الطريق وفي وسط تلك البلدة التي يقبع في آخرها هذا الدير الذي يضم بين جنباته سبع كنائس من عهد الدولة القبطية.. المنازل جميعها زُينت بالصلبان

وصور البابا شنودة ومجسمات المسيح والسيدة مريم.. الأصدقاء المسلمون يتهامسون فيما بينهم بطريقة ساخرة قائلين: (هو الإسلام مدخلش مصر ولا إيه).. فتتعالى الضحكات وسط نظرات استغراب أو استنكار من الأهالي الذين لم يروقهم منظر الوفد الذي يقوده صموئيل بشعره الطويل المتدلي حتى أسفل رقبته.

مرَّت الخطوات سريعًا، ووصل الجميع في النهاية إلى بوابة الدير.. يتواجد عدد من أفراد الأمن التابعين لوزارة الداخلية، رمقوا مستر أحمد وصموئيل ومن معهم بنظرة شك وريبة مبررة في ظل الاحتقان القابع في قلوب الأخوة كسرطان رئة تشعب وأصبح جزءًا أساسيًا من حياة قصيرة لإنسان ينتظر دوره في الانتقال للعالم الآخر.. مشاعر وضغائن من واقعة "القديسين" كافية لتكرار حريق القاهرة مرة أخرى.

تجاوز الرفقاء تلك البوابة وهم يواصلون جو المرح الذي بدأوه قبل نحو الساعة، ووصلوا إلى الكنيسة.. العشرات في الخارج والداخل، يحضرون القداس.. وقبل الشروع في التناول، انطلقا في جولة يقودها أحد العاملين بالدير - يبدو من هيئته عميلاً لأمن الدولة - لاستكشاف الدير وأخذ جولة شبه سياحية.

كان مشهدًا مذهلاً، خطف العقول والأبصار.. آيات الإنجيل التي نُحتت في جبل المقطم.. تماثيل ومنحوتات المسيح عيسى وأمه مريم.. المسرح المدرج في باطن الجبل والذي يعود لعهد الرومان عندما نقلوا هذا المظهر عن اليونانيين القدماء.. قصص المسيح مع "متَّى".. كلماته المأثورة: (مبارك شعبي مصر) التي تبعث الطمأنينة في قلوب الجميع؛ مسلمين وأقباط؛ من أن هذا الشعب سيظل ويبقى يدًّا واحدة تربطه روابط لم ينجح الزمن رغم محاولاته الدؤوبة في فكِّ شفراتها.

أنهوا جولتهم بقراءة: (إله السماء يعطينا النجاح، ونحن أبناؤه نقوم ونبني) ثم عادوا إلى حيث يقام قداس عيد الميلاد.

في صف عرضي بمنتصف الكنيسة جلسوا جنبًا إلى جنب في الركن الخاص بالرجال، يشاهدون الآخرين وهم يصطفون في طابور أوله عند القس وآخره خارج الكنيسة منتظرين أن يتناولوا القربان حتى تحل البركة.

هذا المشهد سيطرت عليه حالة من الفوضى والعشوائية بسبب كثرة الحضور الذين تجاوز عددهم المئات... ولِمَا هو معروف عن مستر أحمد من عشقه لكل ما هو جميل من النساء، فقد اختلس النظر إلى إحدى الفتيات في الجهة المقابلة له.. وظل هكذا لدقائق معدودة خرج بعدها إلى ركن يبتعد قليلاً عن مركز الاحتفال حيث شُيِّد مبنى صغير حمل لافتة في مقدمته كتب عليها (دق الصلبان بطريقة طبية حديثة).. كان المكان مغلقاً لانشغال القائم عليه بتناول القربان وملعقة عصير العنب... لم ينتظر أحمد كثيرًا حتى جاءته الفتاة..

"ماريا" فتاة شقراء في منتصف العشرينيات شعرها يميل إلى البني المحمر، تجاوزت خصلاته أسفل مؤخرتها التي اتخذت شكل مقوسًا يشبه كثيرًا مؤخرة "جيسيكا بانكوك" نجمة شرق آسيا في أفلام البورنو.

بعد حديث قصير مقتضب لم يكن له داعي من الطرفين، انطلقا في رحلة إلى أعماق بحر المتعة واللذة.. فخاض أحمد غمار الأمواج التي ارتطمت على عضوه الذكري وقت استلقاء "ماريا" بكل حواسها عليه.. تنهدات وآهات زادت من ضربات البرق والرعد في سماء المقطم.. جسديهما التصقا معًا لا يفصلهما حتى خيط صغير..

مرَّت اللحظات هكذا.. إلى أن فاجأهما صوت جهوري نابع من باطن الجبل.. ارتعدا هما الاثنان، وركضا معًا أمام ضباب أبيض كثيف... استيقظ أحمد بعده من نومه، على جرس تليفون يبلغه برسالة قادمة من صموئيل يدعوه فيها للاحتفال معه بعيد الميلاد.!

" عبد الحميد " مواطن مصري موظف

الأستاذ عبد الحميد.. موظف درجة ثالثة في مجمع التحرير.. يسكن في شارع العطور بمنطقة الطالبية بفيصل.. في منتصف الأربعينيات.. خطَّ الشيب في رأسه، يستيقظ من نومه دائمًا في أيام العمل الرسمية نحو الساعة السابعة صباحًا.. في منزله الصغير الذي يتكون من حجرتين وصالة صغيرة وحمام ومطبخ، يعيش مع باقي أسرته التي تشمل الزوجة فوزية و أربعة أبناء هم "أحمد" في الثانوية العامة و"محمد" في المرحلة الإعدادية و"لبنى" في المرحلة الإعدادية أيضًا ثم "رانيا" في الصف الثالث الابتدائي.

على صياح زوجته المتذمرة من عيشتهم القحطاء يستيقظ يوميًا، لينهض من على سريره باتجاه الحمام، إلا أن الحمام "مشغول كالعادة".. ينتظر ووراءه باقي الأسرة في طابور لحين خروج "محمد" الذي اعتاد الجلوس في الحمام لحل المسائل الرياضية الصعبة.

ينتهي من حمامه ليرتدي بنطلونًا وقميصًا وبلوفر كانت فوزية قد انتهت من كيهم في الصباح الباكر.. يتناول إفطاره المعتاد "فول وطعمية وجبنة" وقبل أن يهم بالخروج تلاحقه الطلبات: "بابا أنا محتاجة ٣٠ جنيه علشان درس الـ science" هذه كانت لبنى.. ثم أحمد ومحمد: "وإحنا كمان، أنا عندي درس الفيزياء ومحمد مطلوب يدفع مصاريف المدرسة المتأخرة".. الزوجة: "وحياتك يا عبده متنساش تجيب لنا كيلو لحمة زيادة ماانت عارف أخوك ومراته جايين يتغدوا عندنا النهاردة"...

- "حاضر... حاضر" ...

قالها عبد الحميد بضيق بعد أن ارتسمت الهموم على وجهه وكأنها خريطة عسكرية يصعب فك شفراتها.

أمام المنزل ماسورة الصرف الصحي انفجرت، والمسؤولين "في خبر كان".. يرفع صاحبنا بنطلونه ويسير على أطراف حذائه حتى يعبر هذا المنعطف التاريخي في يومه الأسود.. يصل إلى الشارع الرئيسي.. بعد انتظار دام لنحو ٤٠ دقيقة.. أخيرًا يجد مكانًا في ميكروباص متجه إلى ميدان التحرير، يخرج "جنيه وربع" كالعادة؛ وهي الأجرة المقررة؛ لكنه يفاجأ بالسائق: "الأجرة جنيه ونص يا أستاذ، إنت مش حاسس بارتفاع الأسعار ولا إيه.. الحكومة بنت المدايقة عمالة ترفع في سعر الغاز والناس واقفة طوابير.. والله يا بيه أنا مستني لحد ٣ الفجر امبارح عشان اجيب صفيحتين"... تنتهي وصلة التذمر والشكوى التي تعبر عن حالة هذا السائق والمئات غيره، فيناوله عبد الحميد ربع جنيه زيادة وهو يتمتم بكلمات "حسبي الله ونعم الوكيل".

الموعد الرسمي للتواجد في المصلحة هو الساعة التاسعة، والآن الساعة التاسعة وهو ما زال في شارع فيصل بسبب تكدس السيارات وازدحام حركة المرور كالعادة..

عبد الحميد ما بين "النظر إلى الساعة.. وحسبي الله ونعم الوكيل.. والرد على زملائه في العمل الذين يستفسرون عن سبب تأخره ومن أجل إخباره بثورة الغضب العارمة التي تجتاح نفوخ المدير".

"التكدس المروري.. الكلاكسات.. أحاديث السائق وباقي الركاب.. خناقة بين عدد من الباعة.. متسولون وأطفال شوارع.. عجائز يمرون وسط الطريق"... أجواء أحاطت بعبد الحميد الموظف كانت كافية لرفع ضغطه.

على هذه الحالة إلى أن دقت الساعة الحادية عشرة.. ها هو ذا ينزل أخيرًا إلى ميدان التحرير.. يهرول إلى المجمع حتى يتفادى إسطوانة المدير اليومية، لكن هيهات.. جرس التليفون يخبره أن المدير يريده.. يجيب:

- صباح الخير يا سيادة المدير

- خير إيه وهباب إيه يا عبد الحميد.. إنت كل يوم تتأخر.. دي مش طريقة شغل.. كلنا عارفين إن البلد زحمة.. انزل بدري شوية يا أخي... لعلمك مخصوم لك ٣ أيام.

على مكتبه في مجمع التحرير، يتناول كوبًا من الشاي آملاً في أن يطرد حالة الغليان التي يعاني منها رأسه.. ويشرع في عمله قبل أن يأتيه الزملاء ليمارسوا وصلة النميمة والسب والقذف على المدير والإدارة والحكومة والبلد وارتفاع الأسعار والدروس الخصوصية وطلبات البيت اللي ما بتخلصش.

يستأنف عمله المتراكم منذ التاسعة.. وقبل الساعة الثانية، ينطلق إلى الخزنة من أجل الحصول على ملاليم الراتب الشهري، وهناك "٥٣٣ جنيه و١٧ قرش بعد الخصم يا أستاذ عبد الحميد" هذا جورج المحاسب..

يأخذهم عبد الحميد وهو يقول لنفسه "رضينا بالهم"..

ينطلق في رحلة العودة إلى منزله.. سيناريو التكدس يعيد نفسه.. بعد عناء أشبه بما واجهه الفلاحون المصريون في حفرهم لقناة السويس.. يصل إلى محيط منزله، هناك يشتري كيلو اللحمة الذي تخطى سعره الثمانين جنيهًا، ويعود لزوجته التي لا تفارق مطبخها الصغير من أجل إعداد الغداء.

في غرفة نومه يبدِّل ملابسه ويرتدي بيجامة شتوي.. يخرج ورقةً وقلمًا ويبدأ في حساب ميزانية الشهر: البقال والجزار ومصاريف الدروس الخصوصية وهدوم العيد والفلوس اللي سالفها من الحاج علي و...إلخ".. يمزق ورقته هذه ويضرب كفًّا على كف.. تأتيه زوجته لتخفف عنه رغم ضيقها بحالتهم المعيشية.. يقاوم إحباطاته ويخرج لمشاهدة التلفزيون انتظارًا لمجيء الضيوف.. على قناة ONtv "رئيس الوزراء يعلن زيادة أسعار عدد من السلع الأساسية.. وجدل في البرلمان بسبب الحدين الأدنى والأقصى للأجور"..."الرئيس على طريقه سابقيه: لا مساس بمحدودي الدخل.. والفقر هو قضيتنا".

ضحكات متتالية ساخرة وعالية يطلقها عبد الحميد في قلب المنزل.. تأتيه فوزية مسرعة وفي يدها ملعقة كبيرة "فيه إيه مالك يا عبده..؟".. يجيبها وهو يواصل حالته شبه الهيستيرية "زغردى يا فوزية جوزك بقى عنده حصانة!!!"

بـرج الحمل و بـرج القاهرة

الإيمان بالحظ وما يمليه عليه برجه الفلكي أقوى عنده بمئات المرات من إيمانه بربه.. هكذا نشأ صاحبنا في تلك المدينة التي يزيد عدد سكانها عن ١٢ مليون نسمة.. رغم اختلافهم جميعًا شكلاً ومضمونًا إلا أنه فاق التوقعات.. قبل سبعة أعوام احتضن بين يديه أول جريدة ليقرأ فيها عن "حظه اليوم" حيث رأى "برج الحمل: أموال كثيرة في الطريق إليك.. الحب الضائع سوف يعود".. تهللت أساريره وواظب من يومها على شراء جورناله اليومي لمطالعة حظه.. ومنذ ذاك الحين و هو ينتظر الأموال الكثيرة والحب.

هوسه بالأبراج لم يكن مقتصرًا فقط على برجه الفلكي، بل والأبراج المعمارية أيضًا؛ وعلى رأسها برج القاهرة بالجزيرة، حيث خصص ثلاث ساعات من وقته الأسبوعي لصعوده والنظر من فوقه إلى السماء وما تخبأه بداخلها تارة، وإلى الأرض الى بسطت فوقها ملايين البنايات السكنية التي يقطن هو إحداها.

في منزله غرفة متوسطة المساحة بجوار غرفة نومه.. ليست عادية بالنسبة للآخرين من الأقرباء لكنها طبيعية جدًا بالنسبة له، حوائطها مغطاة في جانبين بجميع المقالات والكتابات التي نُشرت محليًا وعالميًا عن الأبراج الفلكية؛ وتحديدًا برجه "الحمل".. وفي جانب آخر من الغرفة مكتبة خشبية اصطف على أرففها عشرات الكتب التي تتناول طبيعة الأبراج الفلكية وخواصها.

سنويًا، وتحديدًا في الأسبوع الأخير من ديسمبر.. يرتكن في غرفته تلك لا يخرج منها، يتابع كل ما يكتبه العلماء عن توقعاتهم لأبناء برج الحمل في العام الجديد.. انتظار ومتابعة بشغف يفوق شغف مشاهدة مباراة الكلاسيكو بين الريال وبرشلونة.

هذا العام: (نتهاء المعاناة الكبرى التي مررت بها طوال السنوات السبع الماضية.. تغلق الباب على الكثير من التحديات وتنطلق واثقًا من نفسك. القدر يدعمك للتخلص من الديون والاستحقاقات. وكوكب جوبيتير الذي يسكن برج الجوزاء حتى يونيو يجعلك تعيش الستة أشهر الأولى من العام حياة غنية تعرف فيها أرباحًا مالية عن طريق النشر والكتابة والسفر.. وفي النصف الثاني من العام، تتراجع مهنيًا وصحيًا.. والخطوات تصبح محسوبة عليك، وأي مغامرة قد تكلفك الكثير.. عاطفيًا: ستلتقي بشخص استثنائي تحبه لكنك تُواجه بضغوط عائلية تدفعك للانفصال عنه.. حالة اليأس آن لها أن تنتهي.. القمر الجديد في برجك يقع يوم ١٠ أبريل حيث يمكنك طلب ما تشاء من السماء التي لا تملك سوى الاستجابة لرغباتك).

حالة من التفاؤل الحذر تسيطر عليه...

أشهر متواصلة يعد فيها اليوم والساعة؛ بل والدقيقة؛ في انتظار قدوم القمر إلى برجه الوديع في ١٠ ابريل.. وها هو ذا في تمام الساعة الثانية عشر مساءً أعلى سطوح برجه السكنى الذي يقطن هو الدور الأخير فيه.. يتوجه إلى السماء رافعًا بصره ومادًا يديه ينشدها تحقيق أمنياته في السلطة والسطوة والمجد والعلو.. في النجاح والرقي والعظمة..

دقائق وساعات مرَّت لم يتغير شيء.. يرفض الاستسلام ليأسه أو لثورة التصحيح التي تتصارع بداخله كبركان على وشك الانفجار.. قدرته على التحمل تتهاوى كبناية شُيِّدت بالرمل.. يسقط مغشيًا عليه..

في حلمه يجد نفسه بمدينة غير التي يألفها.. مليئة باللافتات عليها حروف متقطعة "ك ذ ب ا ل م ن ج م و ن و ل و ص د ق و ا".. يهرول من أجل الخروج من هذا المكان الذي يضيق صدره به.. وقت طويل استغرقه في العدو وسط الرمال.. حتى ينتهي به الحال في ميدان نُصبت فيه المشانق الجماعية.. ينظر بذهول إلى هؤلاء الذين امتلأت غرفته بصورهم وكتاباتهم.. أعلى المشانق نُقش سؤال: (هل تنبأوا هم بنهايتهم تلك؟).. قبل أن يحصل على إجابته يستيقظ ليجد نفسه على سطح بنايته وقد أمطرت عليه السماء ماءً لعله يكون له مُطّهرًا من هواجسه.

في يومه التالي كالعادة يهندم نفسه استعدادًا لبدء يوم جديد مليء بالعمل والحياة.. في طريقه يتوقف مترددًا أمام بائع الجرائد.. لم يتعظ من ليلة أمس، فغلبته نفسه الأمَارة.. اشترى جريدته المعتادة وقرأ حظه اليوم، وانطلق مزهوًا نحو برج القاهرة.

أنا رقم طويل وأهبل

في الساعة الخامسة فجر يوم الأحد "الموافق ١٩ أبريل" عام ١٩٩٢ وُلِد في تلك القرية الفقيرة ليذهب به والده إلى مكتب الصحة من أجل تسجيله في كشوف المواليد؛ حيث كُتب اسمه ووُضع في List "قائمة" كان هو فيها المولود رقم "١٤٧" لهذا العام في تلك القرية..

شهور قليلة ويمرض.. لتذهب به والدته إلى الوحدة الصحية حيث تحصل على تذكرة مكتوب فيها "رقم ١٢" - ويُقصد بذلك دوره في الدخول إلى الطبيب -.

تمر الأيام والشهور والسنوات ليجد نفسه مقبلاً على المدرسة، وكما هو متعارف "مطلوب منك ٦ صور ٤×٦، و٣٥ جنيه مصاريف كتب وصورة شهادة الميلاد وصورة لبطاقة "الرقم" القومي لوالدك".

توالت الأيام في المدرسة، كان هو عبارة عن رقم في قائمة الناجحين أو الراسبين في كل مادة.. رقم في مجموعات الأنشطة.. رقم في مسابقات البرلمان.. رقم في الطابور المدرسي.

وفي المرحلة الثانوية دخل عهدًا جديدًا أصبح فيه "رقمًا رسميًا" عندما امتلك بطاقة الرقم القومي.. ذلك الرقم الطويل المكون من ١٤ رقمًا.

أنهى دراسته في الثانوية العامة، ليبدأ في تجهيز نفسه لدخول الجامعة، في شئون الطلبة بالكلية التي قصدها: (أنا اسمي فلان الفلاني والمفروض إني اتقبلت في الكلية وعايز أقدِّم أوراقي).. الرد: (املأ الورقة دي واكتبلي "رقمك القومي").. ينتهي من ذلك وينتظر في List أخرى نتيجة القبول.. أيام ويحصل على الكارنيه الجامعى الخاص به يقرأ "الاسم.... كلية... القسم.... الكود ٠٩٠٦٠٧٢٨"... وفي الامتحان: "ممنوع الدخول بدون كارنيه"، وعلى ورقة الإجابة "اسمك ورقم جلوسك"..!

في أحد الأيام صباحًا ينتظر داخل فرع البنك الأهلي في الجامعة كي يحصل على الحوالة القادمة له من شقيق أبيه الذي يعمل في الخارج.. دقائق ويسمع هذا الصوت الرتيب "عميل رقم ٧٥ شباك رقم ٣".. وعند الشباك طبعًا: (من فضلك اكتب رقمك القومي ورقم الموبايل في المكان الفاضي اللي في الورقة دا).

يأخذ الحوالة ويخرج.. عائدا إلى مدينة الطلبة التي يقطنها منذ وطأت قدماه أرض القاهرة ليدفع الإيجار الشهري وهناك يسألونه "رقم تسجيلك كام؟" ، فيجيب: "٥١٣".

الدراسة الجامعية تشارف على الانتهاء.. يعود إلى بلدته في زيارة قصيرة.. "القطار رقم ٩٧١".. كرسي رقم "٤١" درجة ثانية مكيفة، هناك يبدأ بعمل اجراءات استخراج جواز السفر "الباسبور" بعدما جاءته فرصة للعمل في الخارج.. كما هو معتاد "اسمك ورقمك القومي و٤ صور ٤×٦".. أيام قليلة ويحصل على الباسبور، ينتظر السفر إلى الأردن.. الحجز على طائرة مصر للطيران الرحلة رقم ٧٠٧..

أنهى اجراءات المطار بعدما راجعوا "رقمه القومي في الباسبور" وتأكدوا من أن سجله الجنائي نظيف.. يصعد إلى الطائرة وأثناء رحلته يستلقي نائما ليجري أمام عينيه رحلة ٢٢ عامًا كان فيهم مجرد رقم طويل وأهبل.. رقم بلا كيان.. رقم بلا إنسان.. إنسان لا يُعترف به دون أوراق تحمل أرقامًا.. إنسان رقمي في مجتمع مادي..

دقائق معدودة واستفاق من حلمه الواقعي.. ليواصل الرحلة؛ ليس عبر الطائرة؛ ولكن عبر حياة لا يجد إنسانيته فيها، ولا يعرف متى يرحل عنها.

لأول مـرة على مائدة الرحمن

في أحد أيام الشهر الكريم، بعد صلاة العصر وقراءة ما تيسر من القرآن، وكالعادة في ظل ابتعادنا أنا وبعض الزملاء عن مسقط الرأس، تساءلنا سؤالنا اليومي المعتاد: "هنفطر فين؟"... الاقتراحات تعددت ما بين "طلب أوردر من قزاز، أو الاكتفاء بعلبة كشري من توم آند بصل"

- لماذا لا نخرج إلى إحدى موائد الرحمن؟...

هكذا سألتُ.. وهكذا ساد القوم سكونًا وكأن على رؤوسهم الطير.. وبعد برهة، قال أحدهم: (إنت عايز تفضحنا؟.. مائدة إيه وبتاع إيه؟ ولو حد شافنا هنقوله ايه؟)... في حين قال آخر: (طب والله فكرة جامدة، يللا بينا، وأهو على سبيل التجربة).

حاولنا إقناع صاحبنا بأن هذا لا عيب ولا حرام، وأننا في ظروف مادية صعبة نتيجة تأخر الراتب الشهري.. على هذه الحالة من "الزن على الودان" ظللنا إلى أن أبدى موافقة على امتعاض.

خرجنا إلى الشارع، لا ندري أين.. نتلفت يمينًا ويسارًا، إلى أن وقعت أعيننا عليها..، لافتة عند تمثال أمير الشعراء كُتب عليها: "مائدة الرحمن بميدان المساحة".

نسير في الاتجاه، الخطوات تتباطأ.. نوع من الخجل هو أو الكسوف يسيطر على بعضنا؛ إن لم يكن الجميع؛ فتلك أول مرة على المائدة..

هانحن ذا نصل، ننظر إلى من جاءوا مثلنا لتلك المقاعد من أجل إفطار؛ أيًّا كان؛ يسدوا به جوعهم وعطشهم طوال اليوم.. أمام "سيلانترو" تقريبًا وبجانبه "بيتزا هت"، جلسنا في تلك الحديقة التي توزعت فيها المقاعد، وجيئ لنا بالإفطار.

بعد حالة من عدم رفع الرأس خجلاً، بدأنا في الانسجام قليلاً، نتناول طعامنا وكأن الجميع تتجه أنظاره لنا، تدور بخواطرنا تساؤلات: ماذا لو أن أحدًا ممن نعرفهم في تلك الكلية أو ذاك المكان رآنا؟

ونحن في تلك الخواطر منغمسين في التفكير أثناء الطعام، نهضنا على قول إحدى السيدات - ترتدي عباية سوداء قديمة، وزنها يزيد عن المائة كيلو، وتعلو جبهتها علامة مميزة نتيجة ضربة بمطواة على أغلب الظن - تقول:

- هما جايبيلنا اللحمة مش مستوية ولا إيييه؟

فيرد عليها رجل نال الشيب من رأسه الكثير، كان يجلس مقابلاً لها:

- والله عندك حق يا حاجة هما مش مقدرين إن أسنانا وقعت من زمان.. حسبي الله ونعم الوكيل.

وبعد لحظات من الذهول أو المفاجأة لهذا الحديث، عدنا إلى أطباقنا مرة أخرى نستكمل إفطارنا.. وبعد أن انتهينا؛ وكان أحد الزملاء لم يفرغ من طعامه بعد؛ نظرت إلى المائدة عقب ابتعادي قليلاً ورأيت: "أناس بسطاء ظلمتهم الحياة والأقدار يبتسمون ويتحدثون، يأكلون وكأنهم للمرة الأولى يرون طعام.. أسرة من أب وأم وابنتين.. سيدة تزن أرطالاً.. شيخ شاب شعره.. شاب لديه موبايل لا يدري كيف يظبط فيه الوقت والتاريخ.. زملاء تأخروا عن الوصول لمنازلهم أثناء عودتهم من العمل.."

كل هؤلاء ممن تجمعوا على دعاء نبينا الكريم (اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ذهب الظمأ وابتلت العروق).

ها هم يفرغون من طعامهم وهم يفكرون في إفطار الغد، ومن قبله سحور الليلة.

كان صاحبي قد فرغ من طعامه حينها، وهممنا بالذهاب إلى أشغالنا متناولين "علب العصير وقطعة البسبوسة"...

وفي الطريق سيطرت علينا حالة من الضحك، فهي المرة الأولى على المائدة.

في النهاية قرَّرنا ان نعيد الكرة مرة أخرى، وأن نتناول إفطارنا على المائدة ثانيةً، ولكن هذه المرة على مائدة أخرى لا نعرف طريقها إلى الآن.

يـوم السبت

السبت.. ليس كباقي أيام الأسبوع بالنسبة إلى هذا المواطن الصحفي الذي يقطن ضاحية "بين السرايات" بالقرب من جامعة القاهرة.. يبدأ يومه الساعة الحادية عشرة صباحًا على جرس تليفون ماركة "نوكيا آش ٢٠٠".. يتثاقل في الرد حتى الرنة الثالثة.. دون أن ينظر إلى الرقم يعرف من المتصل.. "إيمان" مديرته في العمل، تبدأ بالمقدمة المعروفة منذ هدم إبراهيم الأصنام:

- صباح الخير.. إيه الكسل دا كله.. لسه نايم ولا إيه؟.. قوم قوم.. شوفت اللي حصل، الرئيس ألقى خطاب والقوى المدنية رافضينه عايزاك بقى يا بطل تعمل لنا شغل......

- .... حاضر.. حالاً هيكون عندك.!

يغلق الهاتف ويعاود النوم مرة أخرى بعدما ظبط جرس المنبه على الساعة ١١,٣٧..

مع توالي الرنات الرتيبة المنتمية لعادل إمام ولبلبة في رائعة "حمادة وتوتو" يستيقظ وهو يزيل تلك البطانية التي يوازي وزنها وزن شاحنة بمقطورة تحمل ١٠٠ طن أسمنت "بورتلاند أسيوط"..

يضع قدميه في شبشب متهالك تلاشت الألوان البرتقالية منه وظل اللون الأسود فقط، يذهب إلى الحمام.. فقط بعلبة شامبو خضراء اللون كتب عليها "very nice" كانت قد قُدمت له كهدية من إحدى العشيقات الست اللواتي عرفهنَّ في حياته القصيرة تلك.. ينهي هذا الجدل مع خصلات شعره الممتدة وملامح وجهه التي بدأت تتغير، ويعود إلى غرفته..

"mini laptop" ماركة hp على كرسي خشبي وUSB فودافون، يبدأ ما كانت إيمان قد طلبته قبل نحو ساعة.. ينهي عمله هذا في ٤٥ دقيقة، حتى يشعر بتأنيب ضمير تجاه معدته التي تعاني جوعًا قارصًا منذ الثانية بعد منتصف ليلة أمس،، ينظر حوله فإذا بعلبتي مربى فراولة وبقايا كيس "دوريتوس" بطعم الفلفل الحلو وقطعتي بسكويت "لامبادا" بجوارهم زجاجة مياة ليست معدنية.. بقايا طعام كافية لسد فاه تلك المعدة اللعينة..

العودة إلى النوم، والحديث مع "سارة"، ومشاهدة "تشيلسي" في الدوري الإنجليزي أو الشامبيونز ليج.. أفضل نِعَم الله على الأرض بالنسبة له.. يعود إلى النوم، ساعتين ويستيقظ على جرس التليفون النوكيا: (حبيبي كيفك.. واحشنى كتيير، بموت فيك، بعشقك.. طمني على حالك).. هذه كانت سارة.. يجيب وهو لا يدرك معاني الكلمات بسبب سيطرة جامحة من شبح النوم الذي يشبه الضباب الثلجي القاتل في فيلم "Arctic Blast".. (سارة حبيبتي أنا كويس إنتي إزيك.. وإنتي كمان واحشاني جدًا.. بحبك.. بقولك هقوم حالاً أخلص شوية شغل وأكلمك... بااااي).

يفكِّر مليًا في إغلاق الهاتف اللعين الذي لا يكف عن الرنين كجرس كنيسة يوم الأحد..

وهو في تفكيره المشوب بخيالات الأحلام؛ يسقط مغشيًا عليه.. إلى أن يفيق على اتصال قادم من الست الوالدة: (حبيبي إزيك النهاردة ؟.. إنت لسه نايم ؟.. قوم دا العصر قرب يأذن.. قولي صحيح بعت صور أختك الصغيرة لخالتك.. ليه طيب دي زعلانة منك جدًا.. ضروري تبعتهم لها النهاردة.. وخد بالك من نفسك الوضع اللي بنشوفه في التليفزيون ما يطمنش). انتهى...

الساعة الرابعة يفيق من غيابات الجب التي هو بداخلها.. إلى الـ WC مرة أخرى يفرغ مثانته التي كادت تنفجر وهو أسفل البطانية التي تشبه رداء مواطن وسط كتل الثلج في القطب الشمالي، ويعاود غسيل رأسه ووجهه وقدميه اللتين امتد في مقدمتهما حوافر لا أظافر.. يذهب بعدها ليرتدي بنطلون جينز تركي بـ١٦٠ جنيه مول طلعت حرب "NEW BORN" وتي شيرت من نفس المحل وعليهما جاكيت أسود وفرينش كاب وحذاء بالي من كتر اللف في الشوارع..

أمام محل عصير "فواكه الجامعة" يتناول طلبه المفضل "واحد تمر هندي وحيات والدك".. ليتمشى بعدها قليلاً عند أول كوبري ثروت بشارع أحمد زويل.. على مقهى "بندق" الدقيقة ١٦ تشيلسي وسندرلاند على ملعب الأخير والتقدم ٠/١ للبلوز.. هاتلي شاي بحليب.. على هذا إلى أن تنتهي المباراة بفوز فريقه بثلاثية.. تسعين دقيقة كانت كافية لرفع الضغط والسكر، تتطلب في النهاية كباية عناب ساقع..

عقب انتهاء المباراة.. الأجواء مبهجة والدوري لسه في الملعب.. شيء واحد يعكر هذا الصفو.. اتصال هاتفي: (إنت فين يا هشام؟ مش عارف إن الشفت بيبتدي الساعة ٥.. لازم تيجي حالاً.. أنا هنا من الصبح وعايز أروح ولازم حد فينا يكون متابع مع الناس اللي بيشتغلوا).. هذا كان "عربي" رئيس التحرير.. يستقبل صاحبنا كلماته وفقًا للمثل القائل: (ودن من طين وودن من عجين).. صاحبنا: (عربي أنا عيان النهاردة ممكن تشيل بدالي وبعدين عندي مقابلة مع واحدة مزة في شارع العريش بفيصل.. يرضيك يعني تفوتني اللحظة دي..؟".. يعيد عربي أدراجه إلى الخلف على عكس جيش اسبرطة الذي لا يتقهقر.. ويوافق على طلب هشام بعد إلحاح ليس بالكثير.

في أول شارع "حسن محمد" ولد بتاع "كريب" جامد حمادة.. يتناول الكريب مع روز ويتمشى قليلاً إلى الهرم حيث ماكدونالدز واتنين "ميلك تشيك".. ساعة أو أكثر ويعود إلى الغرفة البالية التي يعيش فيها.. مرة أخرى إلى اللاب توب حيث العالم الافتراضي على الإنترنت؛ وتحديدًا إنجاز البشرية "الفيس بوك" حوارات سخيفة مملة رتيبة جامدة مليئة بالكذب والمجاملات والضحكات الصفراء..

يغلق الفيس والميل بعدما نظر بكل مرارة إلى تكليفات العمل يوم غد.. ويقضي سهرته وحيدًا مع فيلم أكشن أمريكي من نوعية "The A Team".. ليخلد بعده إلى النوم وهو يفكر في يوم جديد سيبدأ بعد ساعات قليلة مليء باستفزازات وأحاديث هذا الملتحي الكاذب.. وخطابات حفيد عمر بن الخطاب.. وادعاءات المرشد السياحي.. وفتاوى عبد الله بدر وشعبان "هاتولي راجل"!.

في حُبِّ الآنسة روز

متأرجح قلبه بين المراهقة والرشد وقتها.. لم يكن قد مرَّ بمثل هذا الإحساس من قبل، فقط كان يسمع عنه أو يراه على شاشات التليفزيون في المسلسلات والأفلام العربية.. لكنه فجأة ودون مقدمات.. في أحد أيام صيف سنة ٢٠٠٨، قبل المساء بقليل.. ينام على سرير من الخشب في مدخل منزلهم المتواضع وعيناه تنظران إلى السقف المتداعي.. دخلتْ إلى المنزل مع أناس آخرين.. غير مهمين بالنسبة له..

استفاق ناهضًا ينظر باهتمام وبتركيز شديدين إلى عينيها، دون أنا ينطق ببنت شفه، وعلى وجهه ابتسامة لا يظن أنها ارتسمت على وجهه من قبل.. إحساس غريب كان يسمع عنه ويقرأ.. هل صحيح أنه يحسه ويشعر به الآن؟.. غير قادر على امتلاك جسده المرتعش أو قلبه الذي يخفق بصورة غريبة..

مدَّت يدها كي تسلم عليه وهو في غيبوبة اليقظة تلك، مدَّ يده دون أن يدري، متسائلاً في خلجة نفسه : هل من الممكن أن يكون هذا هو الحب من أول نظرة مثلما يقولون؟!.. كيف هذا؟... قلبه يرد: نعم إنه كذلك، فهذا الإحساس لم نمر به من قبل.

بجواره قليلاً اقتربت وجلست.. دار بينهما حديث قصير مقتضب سألته فيه عن قصة ساقه المكسورة تلك والتى غطتها جبيرة بيضاء.. أخبرها القليل عن حالته..

قبل أن ترحل بقليل تركت له تذكارًا؛ بعد ساعات مرَّت كأنها دقائق معدودة؛ ها هم ينادون عليها، أنه حان وقت الرحيل.. نظرة طويلة ووعد بلقاء آخر.. ذهبت وقلبه معها، تركه بعد كل تلك السنوات التي عاشاها سويًا، فهو غير قادر على مفارقة جمالها ولو لثانية واحدة بعد الآن.

ساعات قليلة جدًا وتستقل القطار متجهة إلى موطنها في العاصمة، وللأسف مجبر هو على البقاء في تلك القرية البدائية المنعزلة عن العالم.

وماذا عن قلبه الذي ذهب معها ؟.. عليه باسترداده أو اللحاق به.. الأمر يتطلب بعض المجهود في الدراسة العقيمة التي هو مجبر عليها.

مرَّت بعض الأيام وها هو ذا أصبح من أصحاب الأملاك بعدما أهداه أحد زملاء والده تليفونًا محمولاً بمناسبة تفوقه في الثانوية العامة.. بسرعة أدخل رقم هاتفها الذي يحفظه بداخله مثلما يحفظ اسمه جيدًا، وتحدث إليها.. وإذ هو يسمع صوتًا رقيقًا ناعمًا مُفعمًا بالحيوية الآخاذة والشقاوة المطيِّرة للعقل.. عرَّفها بنفسه، فتذكرته مباشرة، ودار بينهما حديث عادي جدًا اطمأن فيه على قلبه الذي ذهب معها، وعلم أنه يعيش أيامًا سعيدة لا مثيل لها في حب تلك الآنسة "الآنسة روز".

توالت بعدها الأحاديث الهاتفية، بدأ صاحبنا يشعر بأنه يعيش حقًا، ويحس أن الحياة القذرة الظالمة بها شئ جميل جدًا قد يعوِّضه عن كل مآسيها.

الليالي تتواصل على نفس المنوال، وها نحن ذا نصل إلى فصل الشتاء، يتحلى صاحبنا بقدر من الشجاعة ويقرِّر الاعتراف لها بكل ما به منذ أن رآها أول مرة، فتحدث إليها قائلاً:

- أحبكِ.. منذ أن رأيتك قبل أشهر، منذ تلك النظرة التي تلاقت فيها أعيننا.. أحبكِ دون أن أعرف كيف تعيشين، وما هي حياتك الخاصة.. أحبكِ دون أن أعرف ماذا تحبين وماذا تكرهين.. أحبكِ لأننى منذ أن عرفتك وتبدل حالي تمامًا... أحبك،، فقط لأنني خُلقتُ من أجلك.

صمتٌ رهيبٌ يسيطر عليها.. مترددة في إجابتها.. لم تقل ما كان يتشوق منذ أشهر لسماعه.. لكن بدا من خلال كلمات وتشبيهات أخرى أن هناك أمل..

تطورت العلاقة بينهما شيئًا فشيئا، وأصبح الدافع لديه أكبر بكثير لترك تلك القرية المجهولة ليذهب إلى سماء العاصمة كي يحقِّق حلمه باللحاق بتلك الكلية التي راودته طويلاً في أحلامه، وكي يكون بجوار الآنسة روز التي شجعته على تحقيق حلمه.

يبدو من الوهلة الاولى أنه لا يدري شيئًا عن هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة له.. نظرتْ إليه وأدركتْ أن التحديات التي سيواجهها كبيرة جدًا وقد لا يتحملها.. الثقة - التي لم تكن قد وُجدت إلا بقدر قليل جدًا - بدأت تتراجع إلى ما دون الصفر.. إنه طفل ولن يقدر على شيء... هكذا قالت بداخلها، وهكذا هو أحس وشعر.

ولأنه أحبها حقًا، وأتى كل هذه المسافات من أجلها.. لم يحس بأي أنثى غيرها؛ رغم أنه صادف العديد منهن، وتأكد في قرارة نفسه أن حبه لروز ليس مصادفة أو مراهقة وقتية، إنما هو حُبٌّ صادق حقيقي تأصل في القلب ونشر خيوطه المتشابكة.

كان عليه أن يثبت أنه قادر على تحمل المسؤولية.. أنه قادر على مواجهة التحديات.. أنه قادر على تحقيق النجاح.. أنه جدير بحبها..

سعى صاحبنا جاهدًا من أجل الآنسة روز، فذاكر جيدًا.. وبدأ عملاً بسيطًا أثناء دراسته كي يجمع مصاريف دورة اللغة الإنجليزية.. أشهر قليلة هكذا، يسهر طوال الليل حارسًا لتلك المكتبة هناك بالجامعة.. وفي الصباح يذهب إلى محاضراته.. نجح في تجميع ثمن الكورس، وأخذه وتحسن مستواه كثيرًا في اللغة.. بعدها أراد احتراف الكومبيوتر والإنترنت، وبالفعل نجح في ذلك.. كان يفعل كل هذا وأمام عينيه دائمًا "روز" التي أحبها وعشقها أكثر من نفسه.

بمساعدة اثنين من أصدقائه، ترك عمله هذا، وبدأ يخوض في المجال الذي أحبه، وتمنى طوال حياته أن يعمل به.. من بوابة أشخاص يؤمنون بـ"الحرية" مثله تمامًا.. بدأ محررًا للأخبار، وتحسن مستواه كثيرًا وبدأ يترجم عددًا من مواد الصحف الأجنبية.. كان يشعر بالتفوق والنجاح.. ترقى في عمله سريعًا.. كل هذا وروز تراقب وترى، هذا الشاب الذي جاء من تلك القرية النائية لا يدري شيئا.. ها هو ذا يصعد إلى سلم المجد.. أيقنت أنه هو الذي تريده.

ذهب إليها صاحبنا.. وقف بين أيديها.. ينظر إليها مليًّا ويقول: (ها أنذا أنجح لأني أحبك.. وأعمل لأني أحبك.. وأتحمل المسؤولية من أجلك).

قالت له: (أحبك)..

لم يتمالك نفسه.. فرحة وسعادة ومفاجأة ودهشة ممزوجة بابتسامة عريضة تملأ وجهه تمامًا مثل الابتسامة التي ارتسمت على وجهه عندما رآها أول مرة.. فحلمه يتحقق وروز تعترف له بحبها الذي انتظره ليالٍ طويلة..

وفجأة.. قالت له بشيء من الأسى:؟

- لا أظن أن الأمور ستسير كيفما نشاء، ولعل العديد من الصعوبات ستواجهنا.

بابتسامته الهادئة الواثقة ردَّ عليها قائلاً:

- الحب هو قدرنا، والأقدار لا تتغير. الصعوبات والعوائق مجرد واقع نعيشه، والواقع بأيدينا وبإيماننا بحبنا سنغيّره.

عاد الارتياح إلى وجهها بعد أن شعرت بالقلق خوفًا من انتهاء هذا الحب بالفراق لأسباب تقليدية باهتة.

أمسك بيديها.. ونظرا إلى السماء، لم يتحدثا مطلقًا، لكن أعينهما تحدثت قائلة: (اللهم اجمعنا ولا تفرّق بين قلبينا).

في حُبِّ الآنسة روز (٢)

اليوم ٢٠ ديسمبر ٢٠١٢.. الثامنة مساءً.. هو في غرفة الاجتماعات بمقر عمله.. وهي في صالون منزلهم..

- ألوووو، إزيك يا روز.

- كويسة الحمد لله، إنت عامل ايه؟

- كويس، عايش إلى حدٍ ما.. طمنيني عليكي وعلى حياتك، جهزتى نفسك للجواز ؟... "قالها بمرارة"

- يعني بيتم ترتيب التجهيزات الأخيرة... "تقولها وتتنهد"

- ممممم، يللا ربنا يوفقك ويسعدك، حاولى تحبيه.

- ليه يعني؟

- عشان تقدري تعيشي وتكملى معاه.

- ممم، وإنت خد بالك من نفسك، وإن شاء الله هتلاقي أحسن مني بكتيير.

- "يبتسم ابتسامة أسى": أها متقلقيش هعرف أكمل، عندي أهداف وطموحات عايز أحققها وهعيش علشانها.. باي.

- باي.

تلك كانت آخر كلمات دارت بينه وبين روز في مكالمة هاتفية، بعدما شعر باشتياقه الكبير لها، ورغم علمه أن هذا قد يكون محرمًا عليه خاصة في ظل الوضع الجديد بعد خطبتها لشخص آخر، إلا أنه لم يتحمل العيش أيامًا لا يسمع فيها هذا الصوت الشقي الرقيق.

أغلق هاتفه بعدها واستلقى على كرسي بلاستيك مغمضًا عينيه ليراجع ذكريات أكثر من أربعة أعوام عشق فيها روز.. الخروج معًا عند الجامعة.. التسوق من "3M" أو تناول ساندوتش كريب و"ميلك تشك" من ماكدونالدز.. انتظار أوردر من محل البيتزا والفطائر.. مشاهدة تايتنك بعد منتصف الليل.. المناقشات الشيقة في بعض أمور السياسة.

دقائق معدودة واستفاق من ذكرياته الجميلة المؤلمة.. لملم أوراقه وحمل حقيبته التي تحوى لابتوب ميني وكروت عدد من الشخصيات وأقلام منتهية الصلاحية.. قرَّر أن يواجه الواقع وأن يعيش لنفسه.. أن يتناسى وقت أن ذهب لطلب يدها وتمَّ رفضه.. أن يؤمن بما يُسمى "القسمة والنصيب" وأن "ليس كل ما يتمناه المرء يدركه".

الأيام مرَّت...

روز منشغلة في حياتها الضيقة بتجهيز آخر ترتيبات الزفاف.. وهو منشغل ما بين عمله هنا وهناك، ينتهي منه ليخرج مع الأصدقاء اليوم في سينما أوديون ومشاهدة "The Hobbit" وغدًا على إحدى مقاهي وسط البلد، وبعد غد في ساقية الصاوي وحفل لفرقة "مسار إجباري"... وهكذا مرَّت الأيام على صاحبنا.

كل هذا لم يكن ليثنيه عن التفكير في روز، أو طرد ما يرواده من خيالات وأفكار.. يقضي جلَّ نهاره في العمل، وليله في التفكير فيها وما آلت إليه قصتهما، وكيف أنه كان حالمًا بمستقبل يجمعهما سويًا تعيش هي فيه برنسيس.. ويعيش هو فيه ملكًا متوجًا على عرش قلبها.

حالة اللا سلم واللا حرب التي يعيشها في صراعه مع قلبه لم يكن وقت انتهائها بيده..

استمر الحال هكذا إلى أن جاءته مكالمة هاتفية من صديقة قديمة:

- روز كتب كتابها النهاردة، هتيجي؟

هو محاولاً تماسك أعصابه:

- لا والله مش هقدر عندي شغل كتير.. بلغيها تحياتي.. سلام".

أجهش في بكاء لم يعرفه في أزمة بحياته من قبل.. وصعدت إلى رأسه تساؤلات غريبة واستنكارات لموقف روز السلبي المتخاذل في الدفاع عن حبهما ورضائها بالنصيب!.. سبَّ أهلها وسبَّ العادات والتقاليد.. سبَّ الفقر والحاجة والقدر.. سبَّ الواقع والحياة التي جاء إليها دون إرادة منه...

على حالته هذه.. إلى أن سقط في غيبوبة استفاق منها على سرير في مستشفى.. من حوله أصحاب لا يدرك معظمهم حقيقة قصته مع روز.. إجراءات مغادرة المستشفى تمت في دقائق بعدما اطمأن عليه الطبيب..

في صباح اليوم التالي يستقبل هاتفه الخلوي رسالة من "Unknown Number" مكتوب فيها "الحياة حق"...

يرتدي قميصه وبنطلونه ومن فوقهما بلازر أسود، ويحمل حقيبته ويخرج دون أن يصفف شعره الذي امتدت خصلاته يمينًا ويسارًا.. على مكتبه في الراديو يبدأ عمله بعلبة عصير إنجوي جوافة.. بمجرد الدخول إلى الفيس بوك.. في انتظاره طلب صداقة مرسل إليه من "Nor LyLy" يقبله ويبدأ حديثا مع تلك الفتاة على أمل أن يكون هذا هو المخرج من محبسه في دائرة روز المفرغة تلك.

المؤلف في سطور

- قاص وصحفي مصري من مواليد محافظة أسيوط بصعيد مصر
- تخرج من كلية الإعلام قسم الصحافة. جامعة القاهرة عام ٢٠١٣
- رئيس تحرير بموقع وراديو حريتنا
- صحفي بجريدة الجريدة
- باحث إعلامي بشبكة المدافعين عن الحريات الإعلامية
- عمل مراسلاً صحفيًا بموقع مصراوي الإلكتروني، وبالقسم السياسي بشبكة الإعلام العربية "محيط"، ٢٠١٢ - ٢٠١٣
- شارك في إنتاج وإخراج فيلم توعوي قصير بعنوان "اعمل الصح" ٢٠١١م
- الإصدارات :

- رجل العباءة : وقصص قصيرة أخرى

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني: Hesham.awad33@yahoo.com

الفهرس



www.shams-group.net